العدوان السداسي على مصر

((عمل أدبي))

أحمد محمد علي الحكيم

الطبعة الأولى

2023م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حامدة

عنـوان الكتــاب : العدوان السداسي على مصر

اســـم المـؤلف : أحمد محمد علي الحكيم

التصنيف الأدبي : عمل أدبي

رقـــم الإيـــداع : 26567 / 2023

الترقيـم الـدولي : 8 – 795 – 998 – 977 – 978

التدقيــق اللغــوي : شـيماء زيـن تصــميم الغــلاف : منــى وجيــه

التنسـيق الـداخلي : خالـد محمـد رقـــم الطـبعــة : الطبعـة الأولى

المدير العام : د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع – مصر – بورسعيد

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

العدوان السداسي على مصر

عمل أدبي

لـ أحمد محمد علي الحكيم

تَنْوِيه

كل ما يحتوي عليه هَذَا الْكِتَابِ خَوَاطِر وَرُؤى تُعَبِّرُ عَنْ وَجْهة نَظَرٍ شَخْصِيَّةٌ، نَابِعَة مِن مُنْطَلِق المسئولية الأدَبِيَّة الوَطَنِيَّة لِكُلِّ فَرْدٍ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَلَيْسَ لَهَا دَخَلَ بِأيّة اِتِّجَاهَات سِيَاسِيَّةٍ أَوْ انتماءات حِزْبِيَّة أَو تعصبات دِينِيَّةً أَوْ فِكْرِيَّةٍ، إنَّمَا هِيَ أَفْكَارٌ لِلنُّهُوض بِالْوَطَن والالتفاف حَوْل القِيادَة السِّيَاسِيَّة الواعية حَتى نَسْتَطِيع عُبُور مَا تبقّى مِنْ هَذَا النفق الْمُظْلِم، وحتى تَتَبَوَّأ مِصْر مَكَانَهَا الطَّبِيعِيّ وَالْحَقِيقِيّ فِي الريادة.. هَذِهِ الْخَوَاطِرِ لَا تُحْمَلُ عداء لِأَيّ فَصِيل أَوْ طَائِفَة بِعَيْنِهَا، إنَّمَا هِيَ دَعْوَةُ لِلْوُقُوفِ عَلَى أَسْبَابِ الضَّعْف حَتَّى نَسْتَطِيع مُقَاوَمَتِه وَالْقَضَاءُ عَلَيْهِ وَحِمَايَة مِصْرَ مِنْ أَيِّ أخْطَار خَارِجِيَّة مِنْ شَأْنِهَا تَهْدِيد أَمّنَهَا وشعبها..

حمى اللّٰهَّ مِصْرَ مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ..

قِيادَة وَحُكُومَة وَشِعْبًا..

تَحْيَا مِصْر رُغم أَنْفُ كُلّ حاقِد..

تَحْيَا مِصْر رُغم أَنْفُ كُلّ خَائِن..

تَحْيَا مِصْر رُغم أَنْفُ كُلُّ مُغَيِّبٍ..

تَحْيَا مِصْر رُغم أَنْفُ اعدائها..

تَحْيَا مصر* تَحْيَا مصر* تَحْيَا مصر* تَحْيَا مصر* تَحْيَا مصر*

إهْدَاء

إلَى شعبِ مِصْر الْعَظِيم وجيشها الْأَبِيّ، لَعَلَّكُم تَجِدُون على النار هُدى، مِصْر أَمَانَة فِي عُنُقِ كُلِّ إنْسَانٍ مِصْرِيّ وَسَتُسْأَلُون عَنْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِمَاذَا لَمْ تصونوا لَهَا حَقِّهَا؟!

إلَى زَوْجَتِي وَقَدْ كَانَ لَهَا فَضْلٌ كَبِيرٌ فِي كُلِّ مَا كَتَبْته وألّفتُه مِنْ رِوَايَاتٍ وَقَصَص وأشعار، فَهِي بِحَقّ كَانَت دَافِعًا قَوِيًّا لِلِاسْتِمْرَارِ فِي الْكِتَابَةِ فَكَانَت كُلَّمَا رَأَتْنِي أكْتُب فِي أَيِّ شَيْءٍ تُحَاوِل أن تَوَفَّرَ لِي سُبُل الرَّاحَةِ وَالهُدُوءِ، وَالْأَجْمَلَ مِنْ هَذَا أَنَّهَا كَانَتْ كُلَّمَا علِمَت أَنِّي كَتَبْتُ سَطْرًا أو شطرًا تطلب مني أنْ أقْرَأُه عَلَيْهَا وتستمع بِإِنْصَات شَدِيد إلى مَا كَتَبْته وَتُبْدِي إعجابها بكلماتي وأسلوبي، وَكُنْت كُلَّمَا قَرَّرْتُ أَن أعْتَزِل الْكِتَابَة لِأَنّ كتاباتي بِلَا جُمْهُور كَانَتْ تَقُولُ لِي "أَلَا يَكْفِيك إنِّي أَقْرَأُ لَك، ودوما تطلب مني أن أُعِيد عليها مَا قَرَأْت مَرَّات وَمَرَّات، وَتُبْدِي سَعَادَة تَامَّة وَهِيَ تَسْمَعُنِي فَكَانَ هَذَا دَافِعًا لِأَن أكتب حَتَّى وَإِنْ لَمْ تَظْهَرْ كتاباتي هَذِه لِلنُّور..

((تَقْدِيم))

عُذْرًا إِلَى كُلّ قَارِئٍ إِذَا تَجَاوَزتُ فِي ألفاظي أَوْ خرجتُ عَنْ شُعُورِي لِأَنِّي أَكْتُبُ عَنْ مِصْر، وَالْحَدِيثَ عَنْ مِصْرِ حَدِيث ذُو شُجُونٍ، فَأَنَا أَتَحَدّث عَنْ الْمِصْبَاحِ الوَحِيدَ فِي عصور سادها الظَّلَام، عَن مَنَارَة الْعِلْم الْأَوْلَى والوحيدة وَسَط جحافل الْجَهْل وفيالق التَّخَلُّف، أَتَحَدّث عَن حضارات وَعَن دَوْلَة عُمْرُهَا يُقَارِب عَمَرَ الْأَرْض، عَنْ أُمٍّ بَلَغَتْ مِنْ الكِبَر عتيًّا ولا تَزَال قَادِرَة على الْإِنْجَاب، عَنْ أُمّ اِحْتَضَنَت الْعَالَمَ كُلَّهُ وَعلَّمته، عَنْ مِصْرِ بَلَد الْأَمْن وَالْأَمَان كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ (اُدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) عَنْ بَلَدِ أجنادها خَيْر أَجْنَاد الْأَرْض، بِشَهَادَة خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَبِشَهَادَة القاصي وَالدَّانِي، مِصْر على مَرّ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَان كَانَت مَلْجَأ لِكُلّ شَعُوب الْعَالِم، مِصْر مَلَاذًا آمَنًا لِكُلّ مَنْ ضَاقَتْ بِهِ السُّبُلُ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا.

هَذِهِ لَيْسَتْ مُبَالَغَة وَلَكِنَّهَا حَقِيقَة مُدَوَّنَة فِي صَفَحَات التَّارِيخ وَبِجَمِيع اللُّغَات، اقْرَءوا التَّارِيخ، عَنْ بَلَدِ الأَزْهَر الشَّرِيف، مَنَارَة عُلُومِ الْإِسْلَامِ لِلْعَالِم كُلَّه حَتَّى لِلْبَلَد الَّتِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، عَنْ بَلَدِ حُرِّيَّة الْأَدْيَان، أَتَحَدّث عَنْ أَوَّلِ جَيْشٍ وَطَنِي مُنَظَّمٍ مُنْذُ سَبْعَةَ آلَافِ عَام، عَن مُؤَلَّفَات فِي جَمِيعِ مجالات الْعُلُومَ، عَنْ مِصْرِ أَتَحَدّث يا سادة...

وَقَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ فِي كِتَابِة هَذَا الْكِتَابِ فَأَنَا لا أزايد على وطنيتي مَعَ أَيْ فَرْدٍ، وَلَن أَقْسَم بِأَنَّنِي أَكْثَرُ حُبًّا لَهَا عنْ غَيْرِي، بَلْ رُبَّمَا أَكُون أَقَلّ حُبًّا ووطنية مِنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ عرفتهم وَمَنْ لَمْ أَعْرِفْهُمْ، لَكِن أُقْسَم أَنَّنِي لَسْت متآمرا عَلَى أَحَدٍ بِعَيْنِهِ، وَلَسْت مَعَ أَوْ ضِدّ وَلَسْت صَاحِب مَصْلَحَةٌ شَخْصِيَّةٌ، وَلَن أَقُولُ قَوْل الشَّاعِرِ:

وَطَنِي لَو شَغَلَت بالخلد عَنْه .. نازعتني إلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

بَلْ أَقُولُ إنَّهَا الْخُلْد ذَاته بمقياس الدُّنْيَا، إنَّهَا جَنَّة اللَّهَّ فِي أَرْضِهِ، وَالْآخِرَة أَمْرُهَا عِنْدَ رَبِّي، فَأَنَا رَضعت حُبّ هَذَا الْبَلَدِ مُنْذ طفولتي، فَأَنَا أَتَنَفَّس حَبَّهَا بَيْن ضُلُوعِي، لَدَيّ حُبّ لَهَا، بَل عَشِق، بَل وَلَه، بَلْ إنَّهُ جُنُون لَا أَعْرِفُ مُنْتَهَاه، عَرَفْتُهَا مِنْ كَلَامِ أَبِي عَنْهَا فِي صِبَايَ، مِنْ عِشْق أساتذتي لَهَا فِي مَرَاحِل التَّعْلِيم الْمُخْتَلِفَة، عَرَفْتُهَا مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الوَطَنِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، عَرَفْتُهَا مِنْ كِتَابِ اللَّهَّ وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهَا تَصْرِيحًا وتلميحا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَمُنْذ أَدْرَكْت كُنْه الْحَيَاة وَأَنَا أُحْمِلُ فَوْق كَتِفِي تَارِيخَهَا لِأُبَاهِيَ بِهِ من عَرَفْت وَمَنْ لَمْ أَعْرِفْ، قَدْ يَجْزِمُ الْبَعْض أَنِّي أبالغ فِي قَوْلِي وَلَكِنَّهَا الْحَقِيقَة.. إنَّهَا مِصْر يَا سَادَة.. إنَّهَا مِصْر...

وَهَذَا مَا دَفَعَنِي إلَى الْبَحْثِ عَنْ حَالِ مِصْر وَمَا آلَت إلَيْه فَأَرَدْتُ أَنْ أُزِيح السَّتَّار لِي وللأجيال القَادِمَة عَن أَهَمّ وأخطر أَعْدَاء مِصْرَ فِي تَارِيخِهَا الْمَعَاصِر.

فَقَدْ أَثْبَتَ التَّارِيخ بِمَا لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكّ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيع عَدُوّ خَارِجِيّ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُه أَن يهزمك إلَّا إذَا تَمَكَّنَ مِنْ اِخْتِرَاق صفوفك وَاسْتَطَاع أَن يَبُثّ فِيهَا الْفُرْقَة والشتات، وَأن هزائم الْأَفْرَاد وَالدُّوَل لَا تَأْتِي إلَّا على يَد أَفْرَاد مِنْ دَاخِلِهَا، وَقَدْ كُتَبَ عَلِى مِصْر مُنْذ نَشْأَة التَّارِيخ أَن تَكُونَ مَحَطّ أَنْظَار الْأُمَم الْمُعَاصَرَة لَهَا عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ، وَقَد تفننت هَذِه الدُّوَل فِي الطُّرُقِ الَّتِي تُحَاوِل بِهَا الْوُصُول إلَى عُقْرِ دَارِنَا، وَكَانَت النَّتَائِج دَائِمًا مُتَشَابِهَةٌ بالرغم من تَغَيُّر الظُّرُوف وَالْأَشْخَاص بَل والإمكانيات المتاحة.

وَلَقَد لَقَنَت مِصْر لِلْعَالِم أَجْمَع دروسا مُتَتالِيَة وَمَا زَالَتْ تَلَقَّن دروسها لِلْعَالِم عَلى يَد أَبْنَائهَا الْمُخْلِصِين، وَلَكِن حَتَّى الْآنَ لَمْ يَسْتَوْعِبْ الْعَالِم الدَّرْس جَيِّدًا وَهُوَ أَنْ مِصْرَ خَالِدَة بِخُلُود الْأَرْض مِصْرَ فِي أَمْن اللَّهَّ وَحِمَايَتِه، مِصْر تحرصها عَيْن اللَّهَّ، وجنودها خَيْر أَجْنَاد الْأَرْض، وعلى هَذَا كَانَ لِزَام عَلَيْنَا أَنْ نَزِيح السَّتَّار عَن الْأَعْدَاء الَّتِي تواجهها الْمَحْرُوسَة فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ الْعُصُور، وَلَقَد اسْتَطَعْت بِعَوْنِ اللَّهَّ أَنْ أُحْصِرَ أَعْدَاء مِصْرَ فِي تَارِيخهَا الْمَعَاصِرَ فِي سِتَّةِ أَعْدَاء لَلْأَسَف الشَّدِيد كَان تَصْنِيفَهَا فاجِعَة وكارثة بِكُلّ الْمَقَايِيس، فَقَدْ اتَّضَحَ مِنْ الْبَحْثِ أَنَّ مِصْرَ تَوَاجَه أعداء دَاخِلِيَّة مُجَنَّدَة بحرفية شَدِيدَة يَصْعُبُ عَلَى الْعَامَّةِ اكتشافها، أَوْ مَعْرِفَتَهَا بِسُهُولَة، لِأَنّ الْقوى الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ إيقَاع مِصْر تتفنن فِي أُسْلُوب الْإِيقَاع بِالْأَشْخَاص الَّذي تود اسْتِخْدَامِهِم فِي حَرْبهَا عَلَى مِصْرَ، وبخَاصَّة أَنْ الْحَرْبَ الْمُعَاصَرَة تَغَيَّر مَفْهُومِهَا وَتَغَيَّرَت أَسْلِحَتِهَا، فَلَمْ تَعُدْ الْحَرْب تَعْتَمِد عَلى الْقُوَّة والإمكانيات العَسْكَرِيَّة فَحَسْب، بَل نَزْدَاد عَجَبًا إذَا عَلِمْنَا أَنَّ التَّدَخُّل الْعَسْكَرِيّ قَدْ يَكُونُ آخِرُ حَلٍّ تلجأ إلَيْه الدُّوَل الاسْتِعْمَارِيَّة فِي هَذِهِ الآونة، لِأَنَّهَا لَمْ تَعُدْ بِحَاجَة إلَيْهِ فَهِيَ تَعْتَمِد عَلَى أَنْ يَقُومَ الهَدَف بإنهاك قُوَّتِه بِنَفْسِه، واستنفاد طَاقَتِه فِي الصراعات الدَّاخِلِيَّة، لِذَا حَاوَلَت جَاهِدًا تَحْدِيد الْأَعْدَاء الْحَقِيقَيْين لأي وَطَن، سأحاول سَرْدِهَا حَتَّى يَتَّضِح للأجيال القَادِمَة الدَّوْر الَّذِي يلعبه كُلّ طَرَف سواء عَنْ قَصْدٍ أو عن سُوء فَهْمٍ، وَكَذَلِك يَتَّضِحُ الدَّوْرُ المنوط بِهِ كُلُّ فَرْدٍ دَاخِل هَذَا الوَطَنِ أَمْلًا مِنْ المولى عَزَّ وَجَلَّ التَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ فِيمَا قصدتُ وابتغيت...

((الْبَابُ الْأَوَّلُ))

(مُثَلَّث الرُّعْب)

يَتَنَاوَلْ هَذَا الْبَابِ ثَلَاثَةٌ مَبَاحِث تُعَدُّ مِنْ أَخْطَرِ الْأَعْدَاء الَّتِي تَوَاجَه مِصْر، يَتَنَاوَل الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ دعاة الدِّين، وَمَا لَهُمْ مِنْ تَأْثِيرٌ وَاضِحٌ على الْمُجْتَمَع الْمِصْرِيّ بِكُلّ طَبَقَاتِه، فَعِنْد الْحَدِيثِ عَنْ الدِّيْنِ يَصْمُت الْجَمِيع تقديسا، وَهَيْبَة لِلدَّيْن، حَتَّى طغاة التَّارِيخ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَان كَانُوا يهتزون عِنْد الْحَدِيثِ عَن الدّيْنِ وَالْعِقَاب وَالثَّوَاب حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، لِذَلِك حَاوَلَت الدُّوَل الاسْتِعَمَارِيَّة اِسْتِغْلال هَذِهِ الْفِطْرَةِ لَدَى الشُّعُوب فِي حَرْبهَا الْمُعَاصَرَة وابتدعت إشْكَالًا وَأَلْوَانا لاستغلال الدِّين كسلاح هَدَم لِلْمُجْتَمَع، فَتَمَكَّنَت مِنِ اسْتِغْلالِ أَصْحَاب النُّفُوس الضَّعِيفَة، وَكَذَلِك أَصْحَاب النَّظْرَة السطحية للموضوعات لِتَنْفِيذ مخططاتها بِاسْم الدِّين، وَهَذَا الْأَمْرُ غَيْرَ مُسْتَحْدَث فَهُوَ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، فَلَمْ تَكُنْ الْحُرُوب الْمُسَمَّاة بِالْحُرُوب الصليبية إلَّا نَوْعًا مِنْ اسْتِغْلالِ الدِّين لِتَحْقِيق مطامع استعمارية.

والمبحث الثَّانِي الْإِعْلَام، وَمَا لَهُ مِنْ سلطة وَقُوَّة وقدرة على اِخْتِرَاق قَاعِدَة عَرِيضَة مِن الشُّعُوب بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، فَهُو النَّافِذَة الَّتِي نَرَى مِنْ خِلَالِهَا الْعَالِم بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَمَا يَدُورُ فِي مِصْرنَا الحبيبة بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، فَهُو بِاخْتِصَار عَيْن الشَّعْب الَّتِي يَرَى بِهَا، وَأَيّ خَطَأٌ يَرْتَكِبُه الْإِعْلَام قَدْ يُؤَثِّرُ عَلَى أجيال كَامِلَة وَقَدْ يُؤَدِّي إِلَى اِنْهِيَار قَيم وَمَبَادِئ وَالْعَكْس صَحِيح أَيْضًا، إِنَّنِي أَرَى الْإِعْلَام سِلَاحًا خَطِيرًا وعنصرا أَساسِيّا فِي صقل معتقدات الشُّعُوب وثقافتهم.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ الْفَقْر، وما له مِنْ آثَارِ نَفْسِيَّة سَيِّئَة على من يعيشونه، فَالْفَقْر كَفِيلٌ أَنْ يُولِّدَ أَفْكَارًا هدامة أَو يتبنى أَفْكَارًا قَائِمَة، أَوْ يَجْعَلَ هَذِهِ الشَّريحة الَّتِي تَعِيشُ حَالَة الْفَقْر تُصدِّق مروجي الإشاعات الَّتِي تتناسب مَع وَضَعَه المتردي، بَلْ إِنْ الْفَقْرَ كَفِيلٌ أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الفئات تنحرف وَتَسِير فِي أَي اتِّجَاه، مغيبة الوعي فَاقِدَةٌ لِلْإِرَادَة والإدراك، وَذَلِك حِينَمَا تَجِد يَدًا تحنو عَلَيْهَا وتقدِّم لَهَا مَا تفتقده وَقْتهَا، يُمْكِن لِهَذِه الشرارة أَن تَنْطَلِق لِتَقْضِي على أَيْ بَصِيص مِنَ الْأَمَلِ.

((الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ))

(دعاة الدِّين)

إن الْحَقِيقَةَ الَّتِي لَا تقبل الْجِدَال وَالَّتِي يَعْلَمُهَا الْعَالِم أَجْمَع، أَن شعب مِصْرَ مِنْ أَكْثَرِ شَعُوب الْعَالِم تَدَيُّنًا وَتَمَسُّكًا بِالْقِيَم الدِّينِيَّة، وثورته لِلدِّينِ لَا يُمْكِنُ مواجهتها أَوْ الْوُقُوفِ أَمَامَهَا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا وَلِيد الْيَوْمِ أَوْ الأمْس بَلْ إِنَّهَا حَقِيقَةٌ رَاسِخَةٌ عَنْ مِصْرِ مُنْذ فَجْر تَارِيخُهَا، فَهِيَ أَوَّلُ مَنْ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ فِي زَمَنِ كَان السَّائِد فِيهِ هُوَ تَعَدُّد الْآلِهَةِ، بَلْ إِنَّ التَّارِيخَ يَذْكُر قِيَام حُرُوب مِنْ أَجْلِ الدِّيْنِ فِي مِصْر وَمِنْ أَجْلِ الدَّعْوَة إِلَى عِبَادِة إِلَه وَاحِد، كَمَا ثَبَتَ أَيْضًا تاريخيا أَن شعب مِصْر على مَرِّ الْعُصُورِ كَانَ دَائِمًا يَبْحَثُ عَنْ مظلة دِينِيَّة وقدسية يَحْتَمِي بِهَا، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا شُعُور فِطْرِيّ، وعقيدة رَاسِخَةٌ لَدَى الْمِصْرِيّ الْقَدِيم، وَهُوَ أَنَّهُ دَائِمًا يَكُونُ بِحَاجَةٍ إِلَى قَداسَة تحميه مِنْ الشُّرُورِ التِي تُحِيطُ بِهِ أَوْ حَتَّى تُسَاعِدْه فِي إِنْجَازِ أَعْمَالِه.. هَذِه لَمْحَة بسيطة وَتَنْوِيهٌ عَنْ تَارِيخِ مِصْرَ الدِّينِيّ، وَأَنَا هُنَا أَتَحَدّث عَنْ الدِّيْنِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ الدِّينَ الإِسْلامِيَّ وَالدِّين الْمَسِيحِيّ، بَل وَالدِّين الْيَهُودِيُّ فِي الْفَتَرَات الَّتِي تَخَلَّلَهَا وُجُود يَهُود فِي مِصْر، إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ بمقارنتهم بالشعوب مِنْ حَوْلِهِمْ تَجِدُهُم أَكْثَر تَمَسُّكًا بديانتهم وَعَادَاتِهِم وتقاليدهم، وَإِن إِدْرَاك الشُّعُوب الاسْتِعَمَارِيَّة لِهَذِه الْحَقِيقَة جَعَلَها تتخذ مِنْ الدِّيْنِ سِلَاحًا ضِدّ مِصْر.

وبخَاصَّة أَنَّه فَشل كَمَا يعلم الْجَمِيعَ فِي تَوْظِيف الدِّين لدى شعوبه، لِأَنَّ الدِّيْنَ عِنْدَهُمْ لَا يُمَثّلُ أَهَمِّيَّةً كَبِيرَةً، أَوْ أَنَّهُ مِنْ وَجْهة نَظَرِهِم لَا يَسْتَدْعِي الثورات وشن الْحُرُوب، أَوْ رُبَّمَا أَدْرَكَ الْبَعْضُ عَدَم شَرْعِيَّة دِيَانَتَهُم، أَوْ رُبَّمَا قَالُوا كَمَا قَالَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ لِلْبَيْت رَبّ يَحْمِيه، وَأَيّا كَانَت الْأَسْبَاب فَالْحَقِيقَة الَّتِي لَا جِدَالَ فِيهَا أَنَّ هَذِهِ الدّوَل فشلت فَشَلا ذريعا فِي اسْتِخْدَام الدِّينِ فِي بِلَادِهِمْ كسلاح حَرْب، إذا أضفنا إِلَى ذَلِكَ أَنَّ مِصْرَ اُبْتُلِيت مُنْذ فَجْر تَارِيخُهَا بِمَجْمُوعِة مِمَّن يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي حُكْمِ أَرْضِه، وَأَنَّهُم وَحْدَهُم الَّذِينَ يَعْرِفُونَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَمَنْ سِوَاهُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، لَا مَجَالَ لِلْحِوَار مَعَهُمْ لَيْسَ مِنْ حَقِّكَ الِاعْتِرَاضُ عَلَى أَيِّ أَمْرٍ يقررونه أَو حَتَّى حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، مَا يَقُولُونَه مُسْلَّمَات وَهُم وَحْدُهُم مَنْ يَعْرِفُون الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ وَالْأَوَامِر وَالنَّوَاهِي وَالْحُدُود، يَعْرِفُون الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَوْضُوعَة وَالضَّعِيفَة، هُم وَحْدُهُم مَن يَسْتَطِيعُون تَفْسِير آيَاتِ اللَّهِ، مَرْجِعِيَّة الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ مِنْ خِلَالِ تَفْسِيرِهُم وقناعتهم، لَيْسَ لَهُمْ وَطَن أَو قَوْمِيَّة كَما يَزْعمونَ، إِنَّهُمْ يُحَارِبُون أَو يثورون فَقَطْ مِنْ أَجْلِ الدِّيْنِ، فِي أَيِّ وَقْتَ وَفِي أَيِّ مَكَان، صُفُوفُهم مَرْتَبَة تَرْتِيبًا حَسَب دور كُلّ مَجْمُوعِة مِنْهُم، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى الدّوَل الَّتِي تُرِيدُ وُقُوع مِصْر وَسُقُوطُهَا سِوَى اِسْتِغْلال هَذِه الْفُرْصَة، الطَّبِيعَة الفطرية لَدَى الشَّعْب الْمِصْرِيّ، وَالْفِرَق الَّتِي تَحَدّثَت عَنْهَا، وَلِكَي تَتَّضِح الْحَقِيقَة فَلَا بُدَّ أَنْ أَتَحَدّث أَوّلًا عَنْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَة الَّتِي تَعْتَقِدَ أَنَّ أَفْرَادَهَا هُم خُلَفَاءُ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ، مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَة التَّنْظِيم الدَّاخِلِيّ لِهَذِه الفِرق وَهُم:

الْمَجْمُوعَة الْأَوَّلِى: وَهُم الْقَادَة الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ تَمَام الْمَعْرِفَة، يهدفون إلى أُمُور أَبْعَدَ مَا تَكُونُ عَنْ الدَّيْنِ، لَكِنَّهُم يطوعون الدِّين لِخِدْمَة أهدافهم، فَهُم على علم تَامّ وَدِرَايَة بِمَا يَفْعَلُونَهُ، نَادِرًا مَا يظهرون على بَقِيَّة أَفْرَادِهِم، فَهُم الصَّفْوَة الْمُخْتَارَة وَالْجِنْس النَّقِيّ هَذَا مَا يُرَدِّدُه عَنْهُم تَابِعِيهِم حَتَّى يتمتعون بمهابة وقدسية تُلْغِي عُقُول مِن يَتَعَامَلُون مَعَهُم، جنسياتهم مُتَعَدِّدَةٌ وَقَدْ تَكُونُ دِيَانَتَهُم أَيْضًا لَكِنَّهُم مُتَّفِقُون على هَدَف وَاحِدٍ وَهُوَ تَوْظِيف الدِّين بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ اسْمِ هَذَا الدِّينَ لِخِدْمَة أهدافهم الَّتِي تُمْلِي عَلَيْهِمْ مِنْ قوى أخرى.

الْمَجْمُوعَة الثَّانِيَة: هُم مجندون لاستقطاب الشَّبَاب وَاسْتِدْرَاجِهِم بِاسْم الدِّين، يلقنونهم مَبَادِئ وتعاليم صَحِيحِة فَهُم مدربون وَأَغْلِبْهُم درسوا عُلُومِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ دِرَاسَة مُسْتَفِيضَة، يَسْتَطِيعون الْمُجَادَلَة وَالْإِقْنَاع بِالْحُجَّة، دورهم فَقَطْ هُوَ رَسْم صُورَة جَمِيلَة لِهَذَا التَّنْظِيم لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ إقْنَاع الشَّبَاب بسمو الْغَايَة وَقِيمَة الهَدَف، دَائِمًا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ الْآخِرَةِ وَالشَّهَادَة، كَلِمَاتهم بِمَثَابَة مُخَدِّرٍ للفئات المستهدفة، غَالِبًا لَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أَهْدَاف دُنْيَوِيَّةً أَوْ مَنَاصِب سِيَاسِيَّةٍ أَوْ مكاسب اقْتِصادِيَّة، فَهُم يستغلون الْفِطْرَة الدِّينِيَّة لدى الشَّبَاب، إذَا تَحَدَّثُوا أقنعوا، وَإِذَا صمتوا أبلغوا، هُم يَعْلَمُون تَمَامِ الْعِلْمِ أَنْ غايتهم هي الْوُصُولُ بِالشَّبَاب إلى حَدِّ الْقَنَاعَة وَالطَّاعَة الْعَمْيَاء لِكُلِّ مَا يَقُولُونَه لَهُم، وَهَذِهِ هِيَ الْبِدَايَة..

الْمَجْمُوعَة الثَّالِثَة: وَهُمْ عَامَّةُ الشَّبَاب، ذَوِو الْعُقُولِ الْخَضْرَاء وَالَّتِي جُبِلَت على تَلَقِّي كل مَا يُقَالُ على أَنَّهُ مسلمات مُنْذ طفولتهم، لَدَيْهِم قَنَاعَةٌ شَدِيدَة بفئات مُعَيَّنَةٍ مِنْ الْبَشَرِ أنهم لَا يُخْطِئُونَ وبخَاصَّة إنْ كَانُوا مِنْ رِجَالِ الدِّينِ، هَذِه الْمَجْمُوعَة المستقطبة هُم الضَّحِيَّة وَهُم وَقُود الْحَرْب هُمْ مِنْ يَدْفَعُون الثَّمَن، وَطُرُق استقطابهم عَدِيدَة، أَوَّلُهَا وَأَهَمُّهَا الْمَال فَكُلُّنَا يَعْلَم تَمَام الْعِلْمِ أَنْ الْحَاجَةَ إلى الْخُبْز هِي الدَّافِعُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَان مُقَاوَمَتِه فَهُو دَافِع الْبَقَاء، وَمَن يَقُوم بتجنيد هَؤُلَاء الشَّبَاب دَائِمًا يَبْحَثُ عَنْ نِقاطٌ الضَّعْف، يَبْحَثَ عَمَّا يفتقده هَؤُلَاء الشَّبَاب فَيَكُون الاستِقْطَاب سَهْلًا، وَعِنْدَمَا يَحْصُل هَؤُلَاء المعدمون على الْأَمْوَال فَيَسْهُل تَوْجِيهُهُم فِي أَيِّ اتِّجَاه، وَعَادَة هَذِه الْمَجْمُوعَة مَا تَمَثَّل الْجَنَاح الْعُدْوَانِي فِي هَذِهِ الْجَمَاعَات؛ حَيْثُ أَنَّ إغراءهم بِالْمَالِ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا يحلمون بِهِ مِنْ نَاحِيَةِ وَحَاجَتِهِم الماسة إلى هَذَا الْمَالَ مِنْ نَاحِيَةِ أخرى يَجْعَلُهُم أسرى لدى قُوَّاد الْجَمَاعَة، وَإِلَّا فالعودة إلى مُسْتَنْقَع الْفَقْر مَرَّة أخرى، وَكَيْف لَهُمْ وَقَدْ تَعُودُوا على عيشة البَذَخ وَالرَّخَاء حَتَّى إذَا أَدْرَكُوا أَنَّهُم ضَلُّوا الطَّرِيق غَالِبًا لَا يَعُودُونَ، أَوْ لَا يُحَاوِلُون الْعَوْدَة لِأَنّ حَيَاتِهِم تَبَدَّلَت وَالعَوْدَة تَعْنِي الْفَشل كَمَا أَنَّهُمْ حَتَّى إذَا قَرَّرُوا الْعَوْدَة وَالتَّوْبَة فَإِن قياداتهم تَمْنَعهُم، فَقَد أَصْبَحُوا يَعْلَمُون الْكَثِير عَنْ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ وأهدافها، فالعودة تَعْنِي الْمَوْت وَالْفَقْر فَهُو مُجْبَرٌ عَلَى السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى النِّهَايَة، نِهَايَةٌ الشَّخْصِ نَفْسِهِ وَلَيْسَ نِهَايَةٌ الطَّرِيق.

وثانيها الشُّهْرَة وَالْمَجْد فَدَائِمًا يركز هَؤُلَاء على اخْتِيَار أَشْخَاص مُعَيَّنَة، إمَّا ذَوو الْحَاجَةِ الماسة الْمَلْحَة، وإما مِمَّنْ عَاشُوا زَمَنًا مهمشين فَهُو يمنحه فُرْصَة القِيادَة وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، مِمَّا يَجْعَلُه أَكْثَر حَمَاسا مِنْ غَيْرِهِ، هَذِهِ الْفِئَةُ تَحْدِيدًا عَاشَت زَمَنًا لَيْس بِالْقَلِيل تَحْت أغْلَال وقيود الْمُجْتَمَع، تَعَرَّضُوا لضغوط اِجْتِمَاعِيَّةٌ، وإرهابا اجْتِمَاعِيًّا مُتَعَلِّقًا بِالْأَصْل وَالنَّسَب والمكانة المرموقة، فَهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَعِزَّاء فِي أقوامهم، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الأمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْجَاه وَالسُّلْطَان، فلديهم حقد طَبَقِي مِنْ الْمُجْتَمَعِ بِأَثْرِه فَيَجِدُون ضالتهم المنشودة مَعَ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي تنقلهم مِن الْقَاع إلى الْقَمَة، وَمِن التهميش وَالْإِنْكَار إلى السِّيَادَة وَالْقِيَادَة، وَبِذَلِك لَن يَسْتَطِيعُوا عِصْيَان الْأَوَامِر لِأَنّ الْمُقَابِل هُو الْحَيَاةُ الَّتِي كَانَوا يعيشونها مِنْ قِبَلِ.

وَثَالِثُها فِيه أخرى يَتِمّ استقطابها مِمَّن لَدَيْهِم اسْتِعْدَادًا فطريا لِلتَّدَيُّن، فَهُم متدينون بطبيعتهم يَتِمّ جَذْبُهُم دُون مُقَاوَمَةٍ أَوْ إغْرَاء، فَقَط يُحَاوِلُون تَعْدِيل فكرهم ليتناسب مَع أَهْدَاف القِيادَة الْعُلْيَا، وَهَؤُلَاء لَلْأَسَف الشَّدِيد هُم أَخْطَر فئة، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُومُونَ بِهِ خِدْمَة لِدِينِ اللَّهِ وَعَدَدُهُم لَيْس بِالْقَلِيل، لِأَنّ استقطابهم يَتِمّ بِطَرِيقَة جَيِّدَة وبخَاصَّة فِي ظِلِّ اِلانْفِتَاح الثَّقَافِيّ الَّذِي يعيشه الْعَالِم أَجْمَع، فَلَيْس بِخَفِيّ عَلَيْنَا جَمِيعًا حَالَة التَّرَدِّي الأخْلَاقِي الَّذِي يعيشه الْعَالِم وَالَّذِي أعْتَقَدَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ هَذِهِ الْحَرْب، فَعِنْد مُحَاوَرَة هَؤُلَاء الشَّبَابِ فِي الْفَسَادِ الْمُحِيط بِنَا مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي، يَسْهُل اصطيادهم لِأَنّ فطرتهم تأبى الرزيلة، فَيَعْتَقِدُون دونما أدنى شكٍّ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ سَبِيل الْخَلَاص وَالنَّجَاة، لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُغَيِّرَ قناعتهم فِي ظِلِّ التَّرَدِّي الأخْلَاقِي الَّذِي يحاصرنا.

وَمَع تَزَايَد الرزيلة وَالْفَسَادَ مِنْ حَوْلِهِمْ تَزْدَاد قناعتهم بِجَمَاعَتِهِم، وَمِنْ هُنَا تَبْدَأ مَرْحَلَة سَلْب الْإِرَادَة وَالسَّعْي إلى التَّغْيِير وَإِعَادَة الْإِسْلَام إلى مَجْدِه وَالضَّرْب على يَد الْفَاسِدَيْن، شَيْئًا فَشَيْئًا يتحولون إلَى نُقَّاد لِلْمُجْتَمَع وَأَخْلَاقِه ومعتقداته، هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يدافعون عَن مَبْدَأ وعقيدة، يُحَارِبُون مِنْ أَجْلِ هَدَفٍ حَقِيقِيٍّ، مَشْرُوع فِيهِ اسْتِخْدَامُ أَيْ شَيْءٍ كَمَا صَوَّرَ لَهُمُ قَادَتُهُم، هَذِهِ الْفِئَةُ تَحْدِيدًا تُمَثِّل الغالبية العظمى مِنْ الْجَمَاعَاتِ وَفِي مُعْظَمِ الْأَحْيَان هَؤُلَاء الشَّبَاب هُمْ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْجَمَاعَات كمظلة تظلهم إذَا أَرَادُوا إصْلَاح الْمُجْتَمَع، هَؤُلَاء الشَّبَاب يَعْمَلُون بِصِدْق دُون أدنى هَدَف سَوى الْغَيْرَة على الدِّين، لَكِن دُخُولهم تَحْتَ لِوَاءِ هَذِه الْجَمَاعَات بِمُرُورِ الزَّمَنِ ينسيهم مَا جَاءُوا مِنْ أَجْلِهِ، وَيُنَفِّذُون مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ مِنْ قياداتهم، ويصبحون بِلَا عُقُول تفكر فَقَد رَضُوا بتفكير قياداتهم.. والباحث أَو الْمُتَأَمِّل فِي هَؤُلَاءِ يَجِد أَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي نَفَق سَحيق وَضِيق مُظْلِم فَقَط لِأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا يَدًا تحنوا عَلَيْهِم وتأخذهم إلى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، هَؤُلَاء فَقَدُوا الْقُدْوَة وَالْمثل، وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ كُلًّا مِنَّا يَبْحَثُ عَنْ قُدْوَة وَمَثَل أَعْلَى مُنْذ طُفُولَتِه وَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُنَادِي عَلَيْهِ حَتْمًا سَيَبْحَث عَنْ هَذَا الْمَثَل الْأَعْلَى فَيَجِد ضَالَّتَه المنشودة عِنْدَ أَوَّلِ مُنَادٍ يَمُد لَهُ يَد الْعَوْن دونما تَفْكير.

وبناء عَلَى مَا تَقَدَّمَ فَإِنَّنِي أَعُول على غِيَاب دُور الْأَسرة، وأعتبره أَحَد أَهَمّ أَسْبَاب انْحِرَاف هَؤُلَاء الشَّبَاب، لِأَنَّ الطِّفْلَ يَأْخُذُ مَا يُقَالُ عَنْ وَالِدَيْهِ على أَنَّهُ حَقَائِق بَل مُسَلَّمَات لَا يَجُوزُ النّقّاش فِيهَا، حَتَّى فِي الْمَشَاعِرِ، فَيَنْدُر أَنْ يَكْرَهَ الطِّفْل شَخْصًا يُحِبُّه أَبَوَاه وَالْعَكْس، فالأسرة هِيَ الرَّحِمُ الَّذِي يُولَدَ مِنْهُ الطِّفْلُ.

وَيَنْتَظِر أَنْ تَصْبُغَهُ بِصِفَاتِهَا، فَإِنْ لَمْ تَتَمَكَّنْ الأسرة مِن غرث صِفَات طَيِّبَة فِي هَذَا الطِّفْلِ، فَإِن فِطْرَتُه تَدْفَعُه إِلَى الْبَحْثِ عَنْ صِفَاتِ خَارِج الْأسرة يَتَحَلَّى بِهَا، فَيَجِدُ مَا يُرِيدُهُ لَدَى هَذِه الْجَمَاعَات.

ثُمَّ يَأْتِي دور الْمَدْرَسَةِ فِي الْمَنْزِلَةِ الثَّانِيَة، حَيْثُ أَنَّ الطِّفْل يَخْرُجُ مِنْ حِضْنِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ وَهُو مُقْتَنِع تَمَام الاقْتِناع أَنَّ الْمَدْرَسَةَ حَلَّت مَحَلّ الأسرة بَل وَلَهَا مَشْرُوعِيَّة أَكْثَرَ مِنْ الأسرة، إن الطِّفْل يَتَلَقَّنُ مِنْ مُعَلِّمِهِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ إِقْنَاعِه بِأَنَّ هَذِهِ مَعْلُومَة خَاطِئَة حتى وَالِدَيْه بَعْدَ دُخُولِهِ الْمَدْرَسَةَ يَصْعُب أَن يَعْلَمُونَه شَيْئًا يَتَنَاقَض مَعَ مَا قَالَهُ الْمُعَلِّم، حَتَّى وَإِنْ أَبْدَى الطِّفْل قَنَاعَةٌ بِمَا يَقُولُهُ وَالِدَيْه، فَإِنَّ مَا تَعْلَّمهُ مِنْ الْمُعَلِّمِ يَظَلّ رَاسِخًا فِي قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ، لِهَذَا قَدْ يَكُونُ دور الْمَدْرَسَة أَخْطَر الْأَدْوَار الاجْتِمَاعِيَّة، وبخَاصَّة أَنْ الطِّفْل يَدْخُلُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ فِي سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ تَمَثَّل مَرْحَلَة التَّكْوِين، وَيَظَلّ بِهَا فَتْرَةً طَوِيلَةً.

وَيَأْتِي الخطاب الدِّينِيّ الْجَامِد الْمُتَكَرِّر كَسَبَب آخَرَ فِي الِانْحِرَافِ فَلَا بُدَّ أَنْ يواكب الْخَطَّاب الدِّينِيّ مُشْكِلَات الْمُجْتَمَع الْمَعَاصِر، إِنَّنَا لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ غَزَوَات رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِقَدْر حَاجَتُنَا إِلَى تَوْعِيَة الشَّبَاب بِحُسْن الْمُعَامَلَة، وَلَسْنَا بِحَاجَة إِلَى الْحَدِيثَ عَنْ الْفَرَائِضِ بِقَدْر حَاجَتُنَا إِلَى الْحَدِيثَ عَنْ التَّمَاسُك وَالتَّعَاوُن، فَقَد بَاتَت هَذِهِ الْعُلُوم بَدِيهِيَّات يَتَعَلَّمَهَا الطِّفْل فَوْر تَعَلُّمِه الْمَشْي وَالْكَلَام، إِنَّنَا بِحَاجَةٍ إِلَى خِطَابِ دِينِي يَحْجُبُ عَنْ الشَّبَاب طُرُق الضَّلَال الاجْتِمَاعِيّ والظلم الاجْتِمَاعِيّ، وَيُعَلِّمُهُم احْتِرَام الْآخَر وَتَقْبَلَه..

وَأَنَا هُنَا لَسْت بِصَدَد دَعْوَة إلى إهْمَال الدِّين وَالصَّلَوَات وَالْفَرَائِض وَلَكِن لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، اُنْظُرُوا إلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَيْف تَمّ نُزُولِه عَلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، أَلَم يُنْزَّل الْقُرْآنَ مُوَافِقًا لمواقف بِعَيْنِهَا وحوادث خَاصَّة، حَتَّى الْآيَاتِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ قَصَص السَّابِقِين نَزَلَت لِأَسْبَاب حَدَثَتْ فِي وَقْتِ نُزُولِهَا، لَمْ يَكُنْ نُزُولُ الْقُرْآنِ عشوائيا، بَلْ كَانَتْ كُلُّ آيَةٍ فِيهِ مُسَبَّبَة، والمتشكك فِي الْقَوْلِ يَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَيْس بخاف عَلَى الْكَثِيرِ مَا نُسَمِّيهِ بِالنَّاسِخ وَالْمَنْسُوخ فِي آيَات اللَّهِ، أليست هَذِهِ دَعْوَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى إلَى التطوير؟! حَاشَا لِلَّهِ أَنْ يُغَيِّرَ مَا يَقُولُ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يَكُن لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، وَلَكِنَّ هَذَا الْأَمْر لَهُ مغزى وَهَدَف وَهُو التطوير وَالتَّحْدِيث، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ كَانَتْ هَكَذَا كُلُّ أَحَادِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَتْ بِأَسْبَاب، وَكَذَا كَانَت مَوَاقِف التَّابِعِين حَسب ظُرُوف كُلّ مَوْقِف؛ أَلَم نَسْمَعُ أَنَّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْقَف حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فِي سَنَوَاتِ الْقَحْط، هَذَا هُوَ مَا أقصده مِنْ تَجْدِيدِ الْخَطَّاب الدِّينِيّ، أَنا لَمْ أَدْعُ إلَى دَيْن جَدِيد إنَّمَا أَدْعُو إلَى مُوَافَقَة الْخطاب للمواقف وَالظَّوَاهِر الاجْتِمَاعِيَّة، خِطَاب يَجْذِب الشَّبَاب إلَى الدِّيْنَ لَا يُنَفِّرُهُم مِنْه، يَحُثُّهُم عَلى التَّسَامُح وَالرَّحْمَة قَبْل الْعَصَبِيَّة والثَّوْرَة، يُعَلِّمُهُم الْجِدَالَ بِالْحُجَّةِ لَا بِالْغِلْظَة، يُعَلِّمُهُم حَيّ عَلى الْفَلَاح قَبْل حَيَّ عَلَى السّلَاحِ، أمن الْمَنْطِقِ أَنَّ تَكُونَ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ عَنْ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي قَرْيَةٍ تقدس الثَّأْر وتعتبره أَهَمَّ مِنْ الْفَرَائِضِ الْخَمْسِ.

وَلَيْسَ مِنْ الْعَقْلِ أَنْ يَتَحَدَّثَ أَحَدُ الْفُقَهَاءِ عَنْ زِيٍّ رَسُول اللَّهِّ صَلَّى اللَّهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ تَقْصِير الجِلْبَاب وَإِطْلَاق اللِّحْي فِي مُجْتَمَعٍ لَا يَنْظُرُ إِلَى مِيرَاث الْمَرْأَةِ عَلَى أَنَّهُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِّ، ولا يرى حسن مُعَامَلَة الْآخَرِين إِذَا كَانَ مُخْتَلَفًا مَعَهُ عَلَى أَنهُ مِنْ قَوَاعِد وَأُصُولِ الدِّينِ، كُلُّ مَا أعنيه مِنْ هَذَا أَن يَتَوَافَق الْخطَّاب الدِّينِيّ مَع الْمُشْكِلَات الَّتِي يُعَانِي مِنْهَا الْمُجْتَمَع فَالدِّيْن لَمْ يُغَادِرْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَكِن الْمَقْصُودَ هُوَ الْبَحْثُ وَعَدَم الْجُمُود وَالِاقْتِصَار على خُطب السَّابِقِين، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ السَّابِقِين أَنْفُسهم قَالُوا خطَبَهُم مُتَوَافِقَة مَع مُشْكِلَات عَصْرِهِم، إِنَّ الدِّيْنَ نَقْلًا وَعَقْلًا وَلَيْس نَقْلًا فَقَط.

وَرَابِع هَذِهِ الْأَسْبَابِ غِيَاب دور الدَّوْلَةُ فِي إِلْغَاءِ بَعْض الْمَنَاهِج الَّتِي كَانَتْ تَحُثّ على حُبِّ الْوَطَنِ وَحُبّ الْوَالِدَيْن وَحَذف الدُّرُوس الَّتِي تَتَحَدّث عَنْ الْفَضَائِلِ وَالْقَيِّم وَاحْتِرَام الْكَبِير..

إِنَّ الْحَدِيثَ فِي هَذَا الْمَجَال يَحْتَاجُ إِلَى مُؤَلَّفَات عَدِيدَة وَلَكِن خَيْر الْكَلَامِ مَا قَلَّ وَدَلَّ...

((الْمَبْحَثُ الثَّانِي))

(الْإِعْلَام)

أَيُّهُما ابْنك خبريني؟ من قيدوني عَنْ الْكَلَامِ أَمْ منْ يَطْعَنُون ظَهْرِي بِالسِّلَاح؟ كُلُّهُم ابْنَك لَكِنْ منْ سفَاح لَا نِكَاحَ..

الْإِعْلَامِ الَّذِي أعنيه يَتَمَثَّلُ فِي ثَلَاث فِرَقٍ، الْفرْقَة الْأَوَّلى الْإِعْلَام الرَّسْمِيّ لِلدَّوْلَة، وللأسف الشَّدِيد أَنَّ هَذِهِ الْفِرْقَةِ بَعِيدَة كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ الدَّوْرِ المنوط بِهِ الْإِعْلَامُ، فَهُو بمنأى عَنْ أيَةِ صراعات أَو مُشْكِلَات اقْتِصادِيَّة أَوْ سِياسِيَّةِ، اهتماماته اقْتَصَرْت على الْمَوْضُوعَات الَّتِي لَا تَحْتَوِي عَلَى جَدَل أَوْ خِلَاف فِي الرَّأْيِ، مِثْل أخْبَار الفَنَّانِين والفنانات وَأَخْبَار الكُرَة، وصراع نَادِي الزمالك وَالْأَهْلِيّ وَكُلّ الْأُمُورِ الَّتِي يَكُونُ الْخِلَافُ فِيهَا لَا يُؤَثِّرُ على سِيَاسَة الدَّوْلَة.

الْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ الْإِعْلَام الْخَاص الْمُؤَيَّد وَالثَّالِثَة الْإِعْلَام الْخَاصّ الْمُعَارِض، وَهُمَا مَوْضُوع حَدِيثِي فِي هَذَا الْبَحْثِ الْمُتَوَاضِع، لَقَد بَاتَت وَسَائِلُ الإعْلَامِ بِمُخْتَلف أَشْكَالِهَا الْمَسْمُوعَة والمرئية والمقروءة تُشْكِّل خطرا كبيرا عَلَى الْمُجْتَمَع بِكُلّ فئاته الْعُمرِيَّة، وتلعب دَوْرًا أَكْبَر فِي الْحَرْبِ الَّتِي أَتَحَدّث عَنْهَا، بَلْ لَا عَجَبَ إنْ قُلْت أنها الْحَرْب الْحَقِيقِيَّة، فَهَذِهِ هِيَ حُرُوب الجِيل الرَّابِع، حُرُوب الْفِكْر، وأرى أَنَّ الْإِعْلَامَ فِي مِصْرَنَا الحبيبة قَد أدى دَوْره على أَكْمَلِ وَجْهٍ لإِنْجاح هَذِه الْحَرْب؛ فَلَا تُوجَدُ مهنية فِي إدَارَةِ أَي حِوار أَوْ كِتَابَةٍ أَيْ مَقَالِ.

وَأَنَا لَا أَتَحَدّث عَنْ إعْلَامٍ أَو إعْلامِي بِعَيْنِه، بَلْ كُلُّ الْإِعْلَام الْمِصْرِيّ، الْمُؤَيَّد لِلدَّوْلَة قَبْل الْمُعَارِض، رَأَيْنَا قَنَوات تلفزيونية يتزعمها فَرْد أَوْ فَرْدَيْن، ملت من ظهورهم شاشات التلفزيون، أَوَّلًا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ أَصْحَاب الْقَنَوَات وَإِذَا تَحَدَّثُوا عَنِ أُمُورٍ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ اِجْتِمَاعِيَّة فَلَا مِعْيَار لَدَيْهِم، فَهُو يَتَحَدَّث الْيَوْمُ عَنْ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ ويصول وَيَجُول لِصَالِح هَذَا الشَّيْءَ وَفِي الْغَد يَتَحَدَّث عَنْ النَّقِيضِ وَبِنَفْس الْقُوَّة وَنَفْس الشَّرَاسَة، والأسوأ مِنْ ذَلِكَ الْكَلِمَات الْمُنَافِيَة لِلْأَخْلَاق وَالْقَيِّم الَّتِي يَسْتَخْدِمَهَا الْمُتَحَدِّث، حوارات هزلية وَكَلِمَات مُبْتَذَلَة لَا تَلِيقُ بِمُقَدِّم بَرْنَامَج فِي قَنَاةٍ فضائية يَتَحَدَّثُ فِيهَا عَنْ دَوْلَة بِحَجْم مِصْر، لَيْسَ هَذَا فَحَسْب بَل رَأَيْنَاه يُعْلِن هُجُومًا شَرِسًا على أَيْ صَوْت يَرْتَفِع ليعلن عَدَمِ قَنَاعَتِهِ بِمَا يَقُولُ بَل ويتهمه بِالْخِيَانَة وَالْعُمَالَة، لَا مَجَالَ لِأَنّ تَخْتَلِف مَعَه فَبَات يَقِينًا لَدَى الْمُشَاهَد أَوْ الْقَارِئَ أَوْ السَّامِعُ أَن هَذَا الحِوَار مُعَد سَلَفًا وَمُرَتَّبٌ وممنهج، وَأن أَطْرَافَه مُتَّفِقُون على أَمْرٍ مَّا وحواراتهم هَذِه واختلافاتهم إنَّمَا هِيَ مَسْرَحِيَّة لِمُحَاوَلَة إقْنَاع الْعَامَّة بِوُجُود دِيمُقراطِيَّة فِي الحِوَارِ..

إنَّ الدَّوْرَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الإعلامي هُوَ فَقَطْ رَفَع حَالَة الْعَداء بَيْن الْمَوَاطِن وَأَيّ طَرَفٍ آخَرَ، لِأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الحوارات الْخَاسِر فِيهَا هُوَ الشَّعْب، أَيّ إعْلَامُ هَذَا؟! أَذْكُر وَاقِعَة شهدتها بِعَيْنِي فِي يَوْمِ 2011/2/10 أَحَد الإعلاميين المفوهين مِمَّنْ كُنْتَ أَثِقُ بِهِمْ ثِقَةً عَمْيَاءَ ودوما أحْرِص عَلَى سَمَاعِ حلقاته اليَوْمِيَّة، كَانَ يُقَدِّمُ بَرْنَامَجًا شَهِيرًا جِدًّا، وَفِي مَدَاخِلِة مع أَحَدِ الْمُوَاطِنِين سَمِعْت الْمَوَاطِن يَتحدث عن النّظَامَ السَّابِق ومساوئه والفساد الذي استشرى في جسم الدولة المصرية في أواخر عهد الرئيس الأسبق.

فَرَأَيْت الإعلامي يَصُول وَيَجُول وَيَسُبّ الْمَوَاطِن وَيَصِفُه بِالْخِيَانَة وَالْجَهْل وَالْعُمَالَة وبقدرة قَادِرٍ فِي يَوْمِ 2011/2/11 وَبَعْد خِطَاب التَّنَحِّي الَّذِي أذاعه التلفزيون الْمِصْرِيّ بِلِسَان عُمَر سُلَيْمَان انْقَلَب هَذَا الإعلامي على النّظَامَ وَأَخَذ يَصُول وَيَجُول وَيُعَدِّد مَسَاوِئ نِظَام الرَّئِيس السَّابِق حُسْنِي مُبَارَك، وَالسِّنِين الْعِجَاف الَّتِي عَاشَهَا الشَّعْبُ فِي ظِلِّ ذَلِكَ الْحُكْمِ ويعيد ويكرر نفس الكلمات التي قالها المواطن في مداخلته السابقة، هَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنْ كَثِيرٍ، شَيْءٌ آخَرُ لَمَسَتْه فِي إعْلَامِ الدَّوْلَة، فَإِنَّنَا نرى أَحَدُهُم يُحَدِّثُك عَن إنجازات الدَّوْلَة وَكَأَنَّهَا إنجازات لَه شَخْصِيًّا، بَل أَحْيَانًا أَشُكُّ أَنَّهُ يَتَبَرَّع بِراتِبِه لِلْإِنْفَاق عَلَيْنَا، وَالْحَقِيقَة أَنَّه يمْتَصُّ مِنْ دِمَائِنَا ثَمَنًا لِمَا يَقُولُهُ، وَإِنَّنِي إذ أَقُول قولتي هَذِه فلدي قَنَاعَةٌ كَبِيرَة بِأَنْ جَمِيعَ مَنْ تَقَلَّدُوا حُكْم مِصْرَ فِي تَارِيخهَا الْمَعَاصِر لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِم رَغْبَةٌ فِي هَذِهِ الْهَالَة مِنْ التَّقْدِيس وَالْمَدْح الْمُبالَغ فيهِ، وَتَارَةً أُخْرَى نَرَى إعْلامِي يُرِيد إثْبَات وطنيته يَتَلَفَّظ بِكَلِمَات يُعف لِسَانِي عَنْ النُّطْقِ بِهَا ضِدّ رَئِيس إحْدَى الدُّوَلِ الَّتِي نَخْتَلِف مَعَهَا فِكْرِيّا، فَأَتَذَكَّر حَدِيث الْحَبِيب المصطفي قِيَاسًا (مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قَالُوا وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟! فَقَال يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ) صَدَقْت يَا حَبِيبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَعْد وَصلَة السِّبَاب الَّتِي يَقُودُهَا أَحَد الإعلاميين المتحدثين بِاسْم الدَّوْلَة على رَئِيس دَوْلَة أخرى يَخْرُجُ عَلَيْنَا إعْلامِي مِنْ تِلْكَ الدَّوْلَة يَسُبّ كُلّ رُؤَسَاء مِصْر وشعبها..

عَلى الْجَانِبِ الْآخَرِ الْإِعْلَام الْمُعَارِض يَتَحَدَّث بِلَا أية قَوَاعِد أَو معايير، لَا صَوْتَ سوى صَوْتَهُ، لَا يذكر حَسَنَةً وَاحِدَةً لِأَيّ نِظَامُ حكم مِصْر، شَيْءٌ أَغْرَبُ مِنْ الْخَيَال وَلَا يُصَدَّقُ أن يَكُونَ هُنَاكَ نِظَامُ حُكْمٍ فِي أَيِّ مَكَان فِي الْعَالَمِ بِلَا إنجازات! إن أَحْلَك الْفَتَرَات التَّارِيخِيَّة الَّتِي مَرَّتْ بِهَا أَيْ بَلَدٍ مِنْ بُلْدانِ العالَمِ تخللتها إنجازات كَثِيرَة، حتى وَلَو على سَبِيل الشُّهْرَةِ والتخليد؛ فَالْإِعْلَام بِدُون مُبَالَغَة لَا يحترم عَقْل الْمَوَاطِن، نَحْن أَمَام إعْلَام إمَّا يمنيا مُتَطَرِّفا وإما يساريا مُتَطَرِّفا، وَلَيْسَ هَذَا دور الْإِعْلَام تعودنا أَو تَعَلَّمْنَا مُنْذ الصِّغَر أَنَّ الْإِعْلَامَ يَعْنِي الْحَقِيقَة مَهْمَا كَانَتْ، رجاء احترموا عُقُولنَا وفكرنا؛ لَا يُوجَدُ نِظامٌ سِياسِيٌّ فِي الْعَالَمِ مَلائِكِي أَو عُمرِي بِالْكَامِل وَلَا يُوجَدُ كَذَلِكَ نِظَام شَيْطَانِي بِالْكَامِل، كِلَا الْجَانِبَيْنِ يركز على فَكَرِة المؤامرة حتى بِتْنَا نستخدم هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي كُلِّ أُمُورِنَا، حَتَّى فِي بُيُوتِنَا، فَكُلُّ مَا لَا يُوَافِقُ الهوى يَدْخُلُ فِي إِطَارِ المؤامرة لَكِنِّي أَتَسأَل وَفِي شَغَف: مِن المتآمر مَنْ الطَّرَفَيْنِ ولصالح مَنْ هَذِهِ المؤامرة؟ إنَّ الْإِعْلَامَ الْمِصْرِيّ عَلَى مَنْ يُتَابِعُه أَنْ يُزِيلَ مَرَارَته قَبْلَ أَنْ يُشَاهَدَ أَيْ بَرْنَامَج فِي قنواتنا، فَحِينَمَا تُشَاهَد بَرْنامَجا فِي قَنَاةٍ مَوَالِية تشعر أَنَّك فِي مَمْلَكَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَالْبَشْر مِنْ حَوْلِك هُم صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِّ صَلَّى اللَّهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّك وَحْدَك أَحَد أَحْفَاد أَبِي لَهَبٍ، وَإِذَا تَحَولت لقناة مُعَارَضَة تشعر أَنَّ مَنْ يَتَحَدَّثُ هُوَ قَائِد جَيْش الْفَتْح الْإِسْلَامِيَّ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللَّهِّ عَلَيْهِ، وتشعر أنْ نِظَامَ الحُكْمِ هُوَ نِظَام الْمُقَوْقِس عَظِيم مِصْر، وَالْأَمْر مِنْ ذَلِكَ تشعر أَنَّك أَحَد الْمُتَخَلِّفِين الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ الْحَرْبِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِّ صَلَّى اللَّهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّنَا أمَام مُعْضِلَة كُبْرى وبخَاصَّةٍ أنْ وَسَائِلَ الإعْلاَمِ تَغْزُو الْمَنَازِل وَلَا سَيْطَرَة لِأَحَدٍ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ كُلُّ من يَسْمَعُ يُحْلِل مَا يُقَالُ، إنَّنِي لِأَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أُخْدَع فِي إعلاميين كَثِيرِين فَكَيْف بعقول خَضْرَاء تَعَوَّدَت أَنْ تَسْمَعَ كُلَّ مَا يُقَالُ على أَنَّهُ مُسْلَّمَات لَا يُمْكِنُ العَبَس بِهَا، الْأَمْرَ جِدٌّ خَطِير، وَالْأُمُور لَمْ تَعُدْ تَحْت السَّيْطَرَة، فَهَذِه السَّمُوم نَرَاهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي التلفزيون والجرائد وَوَسَائِل التَّوَاصُل الاجْتِمَاعِيّ، الأمْرُ يَحْتَاجُ إلى كَثِيرٍ مِنْ الإمْعانِ وَالتَّدْقِيق، أَيْن دور الدَّوْلَة فِي رَقابَة الْإِعْلَام؟ الْمُفْتَرض على الإعلامي أنْ يَتَمَتَّعَ بِالنَّزَاهَة والحياد يَحتَفِظ بِرَأْيِه لِنَفْسِه، كُنَّا فِي طفولتنا نَسْتَمِع إلى نَشْرَةِ الأَخْبَارِ فِي صمت رَهِيب بِأَمْرٍ مِنْ وَالِدَيْنَا وكأننا نَسْمَع خِطَابًا لِرَئيس الجُمْهُورِيَّة بالرغم من أَنَّنَا كُنَّا نَسْمَعُهُ وَلَا نَرَاهُ، كُنَّا نَشْعُر أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ يَقُولُه الإعلامي بَيَانًا عَسْكَرِيّا، عُذْرًا: فَقَدْ سَقَطَتْ هَيْبَة الْإِعْلَام، حِينَمَا سَقَطَ فِي وصلات الرَّدح والْمَدْح مَعَ أَوْ ضِدّ، أرى أَنْ الْإِعْلَامَ فِي مِصْر وَصْمَة عَار فِي جَبِينَهَا وَأَنَا هُنَا إذْ أَتَحَدّث فَإِنَّنِي لَا أُذْكُر أَسْمَاء بِعَيْنِهَا لَكِنْ مِنْ لَدَيْه الْجَرْأَة أَنْ يَسْأَلنِي عَنْ الْأَسْمَاءِ فَأَنَا عِنْدِي الْأَسْمَاء بَل وَتَوَارِيخ الحَلَقَات الَّتِي حَدَثَتْ فِيهَا هَذِهِ التجاوزات، إنَّ الإعلام هُوَ الصُّورَةُ الَّتِي تَظْهَرُ بِهَا الدَّوْلَة أَمَام الْعَالَمِ وَلَيْسَ هَذَا فَحَسْب بَلْ إنْ فكرة الْمُوَاطِنِين البَسْطاء أَمْثَالِي تتبلور وتتكون عَن نِظَام الحُكْمِ مِنْ خِلَالِ الْإِعْلَام، وأقولها وَبِدُون تَرْدُد وَلَا خَوْف إن انْخِفَاض رَصِيد وشعبية أَي رَئِيس حَكَم مِصْر لَيْسَ مرجعيته الْأَدَاء إنَّمَا مَرْجِعُه الْإِعْلَام وَالْإِعْلَام الْمُؤَيَّد بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ.

فَحِينَمَا يُجنِّد الإعلامي نَفْسِه فَقَط لِلدِّفَاع والتبرير يَتَكَوَّن لَدَى الْعَامَّة شُعُور بِقُصُور الْحُكُومَات وَحِينَمَا يُحَدِّثُنِي الإعلامي بِطَرِيقة الْمَنّ ويهددني فَهَذَا يُعْطِينِي انْطِبَاعَا عَنْ ضَعْف الدَّوْلَة، إن تَطَوُّر وَسَائِل الإعْلاَمِ أَثَر سَلْبًا على القيادات وَالْحُكُومَات، وَمِمَّا يزيد الْأَمْرِ سوءًا أنْ يَطُل عَلَيْنَا إعْلامِي تَطَفَّل على كُلِّ الْمَوَائِد لَيَقُول لَنَا نَصًّا (اللي مَش عَاجَبه النِّظَام يسيب الْبَلَد) هَذَا لَيْسَ إرْثًا عَنْ وَالِدَيْك كَي تَطْرُد من تُرِيد وَتُبْقِي من تُرِيد، إن محاباة الْحَاكِمِ لَا تَكُونُ على حِسَاب الشَّعْب، الشَّعْب هُو الْقُوَّة وَهُوَ صَاحِبُ الْبَلَدِ وَهُوَ صَاحِبُ الْكَلِمَة الْأُولَى وَالْأَخِيرَة، مَا أَنْتُمْ إلَّا موظفون فِي هَذِهِ الْبَلَدِ تتقاضون أجورا لِخِدْمَة الشَّعْب، لَا أَحَد يَمْلِك تَفْوِيضًا عَن شعب مِصْر يَتَحَدَّث باسمهم سوى رَئِيس الدَّوْلَةِ، وَقَدْ حَصَلَ عَلَى هَذَا التَّفْوِيض بناء عَلَى انْتِخَابَات شَرْعِيَّة..

أَيُّهَا الإعلاميين كفوا عَن التمرمغ تَحْت أَرْجُل الْحُكَّام أَو اللَّهْث وَرَاء الْمَال فالشعب بَاق وَالْوَطَن بَاق وَنَحْن إلى زَوَال، نَحْن فَقَط نَحْمِل رَايَات نُسَلِّمُهَا لِمَنْ بَعْدَنَا فلتبقى رَأَيْتُنَا مَرْفُوعَة إلى الأَجْيَال القَادِمَة، لِمَاذَا تعشقون تَالِيَة الْحُكَّام؟ الْحَاكِم بِشْر يُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَهَذَا لَيْسَ عَيْبًا إنَّهَا طَبِيعَة الْبَشَر الَّتِي خَلق اللَّهُ عَلَيْهَا الْكَوْن، كُلّ يُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُرَدُ عَلَيْهِ، ودوركم لَيْس التَّصْفِيق وَالتَّعْرِيض دوركم الْحَقِيقِيَّ هُوَ الْوُقُوفُ على الْحَقِيقَة بحلوها وَمُرْهَا، الْإِعْلَام الْمِصْرِيّ خَلَق حَالَةً مِنْ الْعَداء بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالشَّعَب، الْإِعْلَام الْمُؤَيِّد يَرْسِم صُورَة مَلائِكِيَّة خَيالِيَّةٌ للشَّعْب أَمَام الْحَاكِم، وَالْإِعْلَام الْمُعَارِض يَرْسِم صُورَة شَيْطَانِيَّةٌ لِلْحَاكِم أَمَام شعبه، مِمَّا يَجْعَلُ الفجوة تَتَّسِع إلى حَدٍّ لَمْ يَعُدْ السَّيْطَرَةُ عَلَيْه شَيْءٌ بِالْإِمْكَان.

فَالْإِعْلَام الْمُعَارِض يَسُبّ وَيَلْعَن فِي النِّظَامِ، وَالْإِعْلَام الرَّسْمِيّ يلون الْحَقَائِق بِلَوْن وَرْدِي ويبرر كُلّ قَرَار وَفَعَل خَاطِئ على أَنَّهُ فِي مَصْلَحَةِ الْمَوَاطِن فَلَم نَعُدّ نتابع الْإِعْلَام إِلَّا للتسلية وَالضَّحِك لَا لِمَعْرِفَة الْحَقَائِق.

على الْإِعْلَام أَنْ يَعُودَ لدوره الْحَقِيقِيّ، فَهُو السُّلْطَة الرَّابِعَةُ فِي الدَّوْلَةِ بِقُوَّة القَانُون والدستور، وَأَنَا على يَقِين أَنَّ الْإِعْلَامَ فِي مِصْر، إِنْ تَمَّ اسْتِخْدَامِه وتوظيفه لدوره الصَّحِيح سيخلق جِيلًا وَأَعْيَا مستنيرا، أَقُول لِجَمِيع الإعلاميين الْمُعَارِضِين والمؤيدين، دَعَوْنَا نَثِق فِي أقوالهم وانقلوا الْحَقَائِق كَمَا هِيَ، أرى الْإِعْلَام بِنَوْعَيْه لَا يُقَدِّمُ حَقِيقَة وَاحِدَة إِنَّمَا اقْتَصَرَ دَوْرُه على الْحَرْب فِيمَا بَيْنَهُمْ، كُلّ جَانِبٍ مِنْهُم يَعْرِض أَقْوَال الْجَانِبِ الْآخَرِ على شاشته لِيُظْهِر عُيُوبه، وَيُهَدِّد الطَّرَفِ الْآخَرِ، ويتهمه بِالْخِيَانَة وَالْعُمَالَة، عُذْرًا الْأَقْوَال سَهْلَة لَكِن الْأَفْعَالَ هِيَ أَوْزَان الرِّجَال، تَنَبَّهُوا واستفيقوا وَاتَّقُوا يَوْمًا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فَيَسْأَلُكُم عَمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ، وَثَمَّة أَمَر أَخِير وخطير بِالنِّسْبَة لِلْإِعْلَام، وَهُوَ الْفَنّ الَّذِي يُقَدَّمُ بِدُون رَقابَة هُنَاك الْكَثِيرِ مِنْ المسلسلات والأفلام تقدِّم قصصا فِي غَايَةِ الخُطُورَة عن الْوَعْي القَوْمِي، قَدْ تَكُونُ قِصَّةِ الفِيلْمِ أَو الْمُسَلْسَل جذابة جِدًّا وَذَات مَوْضُوع هادِف جِدًّا لَكِن طَرِيقَة الْعرْضِ أَوْ الْحَبْكَة الفَنِّيَّة أَو النِّهَايَة تُؤَدِّي إِلَى نَتَائِج عكسية، لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ النِّهَايَات تحذيرية تَمْنَع الشَّبَابِ مَنْ تَكْرَارِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ، فَلَيْسَ مِنْ الْمَنْطِقِ أَنَّ تَكُونَ نِهَايَةٌ البلطجي وَالْخَائِن والمخرب والمزور وَإِلَى آخِر هَذِهِ الْأَفْعَالِ الْمَشِينَة نِهَايَةٌ ثَرَاء فَاحِش أَو مَنَاصِب عليا فَيُشْعِر الْمُشَاهَد أَنَّ هَذَا هُوَ الْقَاعِدَةُ وَمَا دُونَهُ اسْتِثْنَاء.

لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ النِّهَايَة عِقَابًا رَادِعًا يَتَنَاسَب مَع حَجْم الْجِرْم، فَعَلى مُسْتَوَى الْفَنّ لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ النِّهَايَة مخيفة لِمَن يُفَكِّر أَنْ يَسِيرَ فِي مِثْلِ هَذَا الطَّرِيقِ، وَلَا يُفضَّل أَنْ تَنْتَهِيَ الْقِصَّة بِتَوْبَة أَو تَصَالَح، لِأَنَّ ذَلِكَ سَيُفْتَح أَبْوَابًا أَمَام الرَّاغِبِينَ فِي الِانْحِرَافِ عَلَى أَمَلِ التَّوْبَة بَعْد الْوُصُولِ إلى غَايَتُه وَتَحْقِيق أَهْدَافَه، وبخَاصَّة أَنَّنَا فِي الْفَنِّ نُخَاطَب كُلّ الْعُقُول وَمِنْهَا الْعُقُول الْخَضْرَاء الَّتِي لَمْ تَصِلْ إِلَى حَدِّ النُّضْج وَالْإِدْرَاك التَّامّ، إنَّ غَايَةَ الْفَنّ الأَسَاسِيَّة لَيْس التَّسْلِيَة وَالتَّرْفيه إنَّمَا هُوَ رِسَالَةً وَقَدْ تَكُونُ مِنْ أقوى أَسَالِيب التَّرْبِيَة وَالتَّوْجِيه وَالنُّصْح، فَعِنْد عَرْض قِصَّة تَحْتَوِي عَلَى نموذجين مُتَنَاقِضَيْن لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ النِّهَايَة محسومة لِمَن سَارَ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ وَلَيْس الْعَكْس، إن انْتِصَار قُوَى الشَّرِّ حَتَّى وَإِنْ كَانَ الْمُؤَلِّفُ يَعْرِض قِصَّة حَقِيقِيَّةٌ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَثَرُهُ سَلْبِيًّا عَلَى الْمُشَاهَد، وبخَاصَّة إنْ كَثِيرَ مِمَّنْ يُشَاهِدُون هَذِهِ الْقِصَصِ قَد مروا بِحِكَايَات شَخْصِيَّة تُشْبِهُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ، وبلورة هَذِهِ الْقِصَصِ عَلَى شَكْلِ فَنّ يُقَدِّم لِلنَّاس كنوع مِن التَّسْلِيَة وَالتَّرْفيه، يُثْبِتُ دُونَ أَدْنَى شَك أَنَّ هَذِهِ هِيَ طَبَائِع الْأُمُور وَحَقِيقَة الدُّنْيَا، فَيَكُونُ هَذَا دَافِعًا لِفِقْدَان الْأَمَل فِى السَّيْرِ عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ وَيَتَّخِذ كُلُّ فَرْدٍ مِمَّن يُشَاهِدُون هَذا الْفَنِّ مِنْ أَبْطَالِ الأفلام والمسلسلات مَثَلًا أَعْلَى، وَثَمَّة شَيْءٌ آخَرُ وَهُوَ الْمُبَالَغَةُ غَيْر المبررة عِنْد الْهُجُوم أَوْ نَقْد أَحَد فئات الْمُجْتَمَع بِدُونِ ذِكْرِ أَسْمَاءِ فَلَقَد رَأَيْنَا الْفَنّ يَظْهَر عُيُوب هَذِهِ الْفِئَةُ بِطَرِيقِة مَبَالِغ فِيهَا وَلَا يُمْكِنُ لِعَاقِلٍ أَنْ يَصْدُقَهَا لِمَاذَا لَا يَتَسَمّ الْفَنّ بِنَقْل الْحَقِيقَة وبخَاصَّة إذَا عَلِمْنَا أَنَّ وَاحِدَةً مِنْ الْخِصَالِ الَّتِي تَفْعَلُهَا هَذِهِ الْفِئَةُ مَحَلّ الدِّرَاسَة الفَنِّيَّة كَفِيلة بِأَن تَمْلَأ قُلُوب الْمُجْتَمَع كَرَاهِيَة لَهُم.

إنَّ الْمُبَالَغَةَ فِي أَيِّ شَيْءٍ يَأْتِي دَائِمًا بِنَتَائِج عكسية.. هَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ أَشَرْت إلَيْهِ فَقَطْ لأنوه لِلْقَارِئ كَيْف تُحَارِب مِصْرَ حَتَّى مِنْ خِلَالِ وَسَائِلِ الإعْلاَمِ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا وبنسبة كَبِيرَة جِدًّا عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَرُبَّمَا الْمُؤَلِّفَ أَرَادَ مِنْ رِوَايَتِهِ إزَاحَة السَّتَّار عَن مُشْكِلَة اِجْتِمَاعِيَّة خَطِيرَة، لَكِنَّه لَلْأَسَف لَمْ يُقَدِّمْ الْحِلّ الصَّحِيحِ أَوْ الْأَمْثَل لِهَذِه الْمُشْكِلَة.

اسْتَقِيمُوا يَرْحَمُكُمْ اللّٰهُ

((المبحث الثالث))

(الفقر)

لقد صدق من قال لو كان الفقر رجلا لقتلته، الفقر هو البيئة المناسبة والتربة الخصبة لنمو الأفكار الهدامة، هو المعول الذي تستطيع أن تهدم به أعتي الحضارات، فإذا جاعت البطون خلت العقول من أية أفكار إلا من فكرة واحدة هي كيف أسد هذا الجوع؟ ولا شك أن شريحة كبيرة من المجتمع المصري في هذه الآونة تعاني من الفقر المدقع، هذه الشريحة هي وقود للحرب التي أتحدث عنها فكيف تطلب من رجل لا يستطيع أن يكفي حاجة أسرته من الخبز أن يكون مؤهلا لتربية أبنائه على حب وطن لم يضمن له رغيف خبز آمن، كيف له أن يعلمهم مبادئ ومثلا، وبخاصة إذا علمنا أن عددا ليس بالقليل من دعاة الوطنية والمبادئ السامية يعيشون في بذخ وترف؟ كيف لداعية إسلامي يرتدي جلبابا بآلاف الجنيهات ويمسك ميكروفونا مرصعا بالذهب أن يحدثني عن تحمل الفقر من أجل الوطن؟ يحدثني عن مبادئ التكافل والتكامل وهو لا يطبقها حتى مع أقرب الناس إليه، وكأنه يقول لي إنه وطني أنا فقط؟ المنطق أن يتنازل عن جزء من مظهره ويشاركني في تحمل هذه الظروف، كيف لمفكر يتقاضى آلاف الجنيهات في حلقته بالتلفزيون أن يحدثني عن تحمل الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها البلاد.

وعن مساندة مصر في أزمتها والتخلي عن الرفاهيات وجزء من الأساسيات، ألست أنت من سكان هذا البلد؟ والكثير والكثير من مقدمي البرامج الذين يتحدثون عن تحمل غلاء الأسعار، ويطالبون البسطاء بمقاطعة السلع التي يرتفع ثمنها، في ذات الوقت الذي يتقاضى هذا الإعلامي مرتبه ملايين الجنيهات، لا بد أن نعترف أولا بعدم وجود عدالة اجتماعية، وأن معيار العلم والخبرة والمهارة والكفاءة خرج من السباق مهزوما غير مأسوف عليه، ليفسح المجال لمعايير أخرى كلنا يعلمها ولا داعي للحديث عنها.

إنَّ مَا يَخْرُجُ مِنْ الْقَلْبِ يُلاَمِس الْقَلْب وَمَا يَخْرُجُ مِنْ اللِّسَانِ لَا يَتَجَاوَزُ الْأَذَان، لِذَلِكَ أَقُولُ إنْ الحالَةُ الاقْتِصادِيَّةُ المتردية لشريحة عَظمى مِنْ الشّعْبِ الْمِصْرِيّ هِي أَهَمّ أَحَد أَعْدَاء مِصْرَ فِي تَارِيخُهَا الْمَعَاصِر، وبخَاصَّة بَعْدَ أَنْ رَأَيْنَا تَحَوَّل سَرِيع وخطير فِي المؤشر الاجْتِمَاعِيّ، لَا يَسْتَنِدُ هَذَا التَّحَوُّل إلَى الْخِبْرَةِ أَوْ الِاجْتِهَادِ أَوْ الذَّكَاء إلَّا بِنَسَب قَلِيلَةً جِدًّا، وَأَنَّ الْعَامِلَ الأَسَاسِيّ فِي هَذَا التَّحَوُّل هُو المحسوبية لَا الْكَفَاءَة وَهَذَا كَفِيل أَن يزلزل أقوى البِنايات وَأَرْسَخ الْعَقَائِد.

إنَّ الْفَقْرَ الَّذِي تعاني مِنْه شَرِيحَة كَبِيرَةً مِنْ الْمُجْتَمَعِ كَفِيل بِأَن يَهْزِم مِصْرَنَا الحبيبة فِي حَرْبهَا الْمُعَاصَرَة، فَهَذِه الشَّرِيحة الَّتِي أَتَحَدّث عَنْهَا عَجِينُة لِينَة يَسْهُل تشكيلها بِمَا يُنَاسِبُ هَوى كُلِّ صَاحِبِ مَصْلَحَة فِي سُقُوطِ هَذَا الْبَلَدِ، هَذِه الشَّرِيحة أَسْهَل مَا يَكُونُ استقطابها فِي أَيِّ اتِّجَاه، لِأَنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ أبْسُط مُقَوِّمَات الْحَيَاةِ وَهُوَ الْخُبْزُ، الْخُبْز مُقَابِل التَّنَازُلُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ؛ أَلَم نَسْمَعْ عَمَنْ قَامُوا بِبَيْع أَعْضَائِهِم؟ أَلَم نرى مَن بَاعُوا بَعْضَ أَبْنَائِهِم لِتَرْبِيَة الْآخَرِين؟ أَلَم يَمُر عَلَيْنَا مَنْ بَاعَ جُزْءًا مِنْ مَنْزِلِهِ أَوْ أَجَّرَ غُرْفَة فِي شُقَّتَه لِيَسْتَعِين بأجرها عَلى الظُّرُوف الْقَاسِيَة الَّتِي يَمُرُّ بِهَا، فَكَيْف لجائع بَاع أَعْضَاءه وأبناءه وَمَنْزِله أَنْ لَا يَبِيعُ مَبَادِئ أَوْ قَيم؟ كَيْفَ لَهُ أَنْ لَا يَبِيعُ وَطَنِه؟ أَنا لَا أَتَحَدّث عَن خَيَالٍ أَوْ تَنَبُّؤٍ، بَل إنَّنِي أُصَوِّر وَاقِعًا مريرا نعيشه ونلمسه، إنَّ جَمِيعَ الإحصائيات تَوَكَّد أَن الغالبية العظمى مِمَّن انْحَرَفُوا فِي أَيِّ اتِّجَاه كَانَ الدَّافِعُ وَرَاءَ هَذَا الِانْحِرَافَ هُو لُقْمَة الْعَيْش، ولأنني أَتَحَدّث عَن وَاقِع لَامَسَتْه عَنْ قُرْبٍ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَحَدَّثَ مُغْرِضٌ أَو مُضَلِّل لَيَقُول أَنَّ هَؤُلَاءِ انْحَرَفُوا عَنْ ضَعْفٍ وَعَجَز، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ قَادِرِين عَلى الْمُوَاجَهَة، أَقُولُ لَك مَهْلًا إنَّهُمْ سَلَكُوا دُرُوبًا كَثِيرَةً لِلْبَحْثِ عَنْ لُقْمَة عَيْش شَرِيفَة، لَكِنْ جَمِيعُ الْأَبْوَابِ أوصدت أَمَامُهُم، وَلَيْسَ كُلُّ مِنَّا قَادِرًا عَلى الصمود وتحدي العَقَبَات وَتَكْرَار الْمُحَاوَلَة بَعْد الْفَشِل، إنَّ هَذَا الْأَمْر يَتَطَلَّب قُدُرات خَاصَّة، فَدَائِمًا يبْحَث الْإِنْسَانُ عَنْ الْحُلُولِ الْأَسْهَل بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ النَّتَائِج، وَإِنَّنِي إذ أدافع عَنْ هَذِهِ الشَّرِيحة الْعَرِيضَة مِنْ الْمُجْتَمَعِ فَلَا أُحَاوِل أَن أَجْزِم بِأَنَّ هَذَا مبررا للانْحِراف، وَلَكِنَّنِي أَفْنَد عَنَاصِر الْعُدْوَان عَلى مِصْرنَا الحبيبة.

وبخَاصَّة أَنَّنَا نَتَحَدَّث عَنْ ظَاهِرِهِ تَفَشَّت فِي شَرِيحَة كَبِيرَةً مِنْ مجتمعنا، وَلَا يُنْكِرُ عَاقِل أَنْ مجتمعنا اِخْتَفَت مِن طَبَقَاتِه الاجْتِمَاعِيَّة الطَّبَقَة الْمُتَوَسِّطَة، الَّتِي كَانَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ بَيْنَ الْغَنى الْفَاحِشَ وَالْفَقْر الْمُدْقِع، إن تَدَرَّج السُّلَم الاجْتِمَاعِيّ صِمَام أَمَانٍ لِلْمُجْتَمَع، وَإِن اِخْتِفَاء الطَّبَقَة الْمُتَوَسِّطَة نَذِير شُؤْمٍ لِلْمُجْتَمَع، لِأَنَّ نَظَرَة الطَّبَقَة الْمَعْدُومَة لِلطَّبَقَة الْعُلْيَا لَن تَرقى إلى الْحُبّ وَالْأُلْفَة، لِأَنّ الفجوة بَيْنَهُم كَبِيرَة جِدًّا يَصْعُبُ عَلَى أَيِّ إنْسَانٍ حَتى مُجَرَّد التَّفْكِير أَوْ الْحُلُمِ فِي الْوُصُولِ إلَيْهَا، هَذَا الشُّعُور يُولَد حَتْمًا الْحِقْد وَالْغَيْرَة وَالرَّغْبَةُ فِي الِانْتِقَام..

عَلى الْجَانِبِ الْآخَرِ الشَّريحة الْعَليا مُجَرَّد تفكيرهم فِي تَبَدُّل أَحْوَالِهِم ووصولهم أَو اقترابهم مِنْ الطَّبَقَةِ الْمَعْدُومَة، كَفِيلًا أَنْ يُولَدَ لَدَيْهِم دَافِعًا لِلْبُعْد عَنْهُم عَلى اعْتِبَار أَنَّهُم وباء، أَوْ مَرَض خَطِير، وَإِن اِخْتِفَاء الطَّبَقَة الْوُسْطَى لَمْ يَعُدْ عَلَى مُسْتَوى الْقُطَّاع الْخَاصّ فَقَط، بَل امْتَدّ لِيَشْمَل الْقُطَّاع الْعَامّ، فَكُلُّنَا يَعْلَم التَّفَاوُت غَيْر المَقْبُول فِي مَرْتَبَات الْهَيْئَات وَالْمُؤَسَّسَات، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤَسَّسَات خدمية وَأُخْرَى إنْتاجِيَّة، وبالرغم من عَدَم مِصْداقِيَّة هَذَا المبرر مِن نَاحِيَتَيْن الْأَولى أَنَّه تُوجَد مُؤَسَّسات خدمية تتقاضى أجورا أَضْعَاف أَضْعَاف مثيلاتها، وَالثَّانِيَةُ أَنْ لَفْظَ مُؤَسَّسات خدمية خَاطِئٌ مِن الْأَسَاس فَلَوْ نَظَرْنَا إلى الْمُؤَسَّسَة التَّعْلِيمِيَّة عَلَى أَنَّهَا خدمية عُذْرًا فَهَذِه نَظَرِه سَطْحِيَّة جَوْفَاء فَأَيّ دَوْلَة مُتَقَدِّمَة تَعْتَبر التَّعْلِيم أَهَمّ مُؤَسِّسَة إنْتاجِيَّة فِي مؤسساتها فَهِي الْمَسْئُولَة عَن إنْتَاج الْعُقُول الَّتِي تُدِير كُلّ مُؤَسَّسات الإنْتاج بِالدَّوْلَة.

وَأَيّ خَطَأٌ فِي هَذِهِ الْمُؤَسَّسَة قَد يُكَلّف الدُّوَل مَا لَا يُمْكِنُ إدْرَاكُهُ وَعَوْدَتُه فِيمَا بَعْدُ وَقِس عَلَيّ ذَلِكَ الصِّحَّةَ، والمحليات وَغَيْرِهَا كُلُّهَا مُؤَسَّسات لَلْأَسَف الْخَطَأُ فِيهَا قَدْ يَمْتَدُّ أَثَرُه إلَى أجيال كَثِيرَة، إن اِخْتِفَاء الطَّبَقَة الْوُسْطَى مِنْ الْمُجْتَمَع مَسْئُولَةٌ عَنْهَا الدَّوْلَة بأجهزتها مسئولية كَامِلَةً فَعَلَى صَعِيد الْقُطَّاع الْخَاصّ غَاب دور الدَّوْلَةُ فِي مُرَاقَبَة نُمُوّ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ اقْتِصَادِيّا بِطَرِيقِة غَيْر مَنْطِقِيَّة، إمَّا لِوُجُود فَسَاد فِي أَحَدِ أَعْضَاء الْمُؤَسَّسَات الْمَسْئُولَة عَنْ هَذَا النَّشَاطُ، أَوْ رُبَّمَا إهْمَال تَامّ لِهَذِه الْمِنْطَقَةَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَة وَكِلَا السَّبَبَيْن أَسْوَأُ مِنَ الْآخَرِ، وَصُدِّقَ مَنْ قَالَ: (إنْ كُنْت تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَة وَإِنْ كُنْت لَا تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَم)، إنَّنِي أُكْتُفِي بِالْإِشَارَة فَقَط إلَى هَذِهِ الْمَوْضُوعَات لِأَنَّنِي سأفرد لَهَا أَبْحَاث كَامِلَة فِي مُؤَلَّفَاتِ أَخرى إذَا قُدِّرَ لي الْبَقَاء، وَصَفْوة الْقَوْلِ أَنَّ الْحَرْبَ دَائِرَةٍ بَيْنَ الطَّبَقَتَيْنِ، مَعَ الْعِلْمِ أَنْ اجْتِمَاعَهُمْ والتقاءهم ضَرُورَة حَتْمِيَّة اِجْتِمَاعِيَّة، هَذَا الِاجْتِمَاعِ مَعَ وُجُودِ حَرْب نَفْسِيَّة كَفِيل أَنْ يُوجَدَ حَالَة مِنْ الانفصام بَيْن طَبَقَتَي الْمُجْتَمَع، وَهَذِهِ الْحَالَةُ قَادِرَة عَلى إشْعَال فَتِيل الْحَرْب الْمَجْهُولَة الهَدَف، وللأسف الشَّدِيد أَنَّ هَذِهِ الْحَرْب جَمِيعِ الْأَطْرَافِ فِيهَا خَاسِرَة، فَأَيّ حَرْب عَلى مَرِّ الْعُصُورِ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَحَد الْفَرِيقَيْنِ مُنْتَصِر وَلَو بِصُورَة نِسْبِيَّة، لَكِنَّ هَذِهِ الْحَرْبَ لَا يُوجَدُ بِهَا أَيْ مُنْتَصِر، بَلْ إنَّهَا تُدَمّر الْقُوَّتَيْن بِنَفْس النِّسَب.

لِذَلِك أَجْزِم: أَنَّ أَحَدَ أَهَمّ أعْدَاء الوَطَنِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ العصيبة مِن تاريخنا هُو الفجوة الْعَمِيقَة بَيْن طَبَقَتَي الْمُجْتَمَع وَأَنَا هُنَا لَسْت بِصَدَد دَعْوَة إلَى مُجْتَمَع مِثالِي تتساوى فِيه دخولنا ونفقاتنا، لَكِنِّي فَقَط أَدْعُو إلَى التَّقَارُب فِي مُسْتَوى الْمَعِيشَة ، لَيْسَ مِنْ الْعَقْلِ أَنْ يسطو أَحَد الْأَفْرَاد عَلى آلاف الأفدنة بِدُونِ وَجْه حَقّ، إمَّا فِي ظِلِّ غِيَاب دور الدَّوْلَة وإما بِمُسَاعَدَة أَحَد ضِعَاف النُّفُوس، وَفِي الْمُقَابِلِ لَا يَسْتَطِيعُ رَجُلٍ بِنَاءَ دور ثَانِي فَوْق مَنْزِلَة لَيَتَزَوَّج ابْنِه، هَذَا هُوَ الَّذِي يُشْعِرَنَا بالفجوة الْعَمِيقَة وَالتَّبَاعُد بَيْن فئتي الْمُجْتَمَع، لِذَلِك لا بُدَّ مِنْ عَوْدة الطَّبَقَة الْوُسْطَى لِتَضْيِيق الفجوة بَيْنَ الطَّبَقَات...

اللَّهُمّ قَارَب بَيْن أَيَامنا

((الْبَابُ الثَّانِي))

(الثُّنَائِيّ المدمر)

يَتَنَاوَلْ هَذَا الْبَابِ الْحَدِيثَ عَنْ فِئَتَيْن فِي الْمُجْتَمَعِ لَهُمَا دُور بَارِز فِي الْحَرْبِ الْمُعَاصَرَة وَهُمَا الْمُرْتَزِقَة والرُّوَيْبِضَة، سَوْف أُحَاوِل فِي بَحْثَيْ هَذَا تَوْضِيح دور كُل فِيهِ مِنْهُمَا فِي الْحَرْبِ الدَّائِرَة عَلى مِصْرَ فِي تَارِيخُهَا الْمَعَاصِر بَلْ إن هَاتَيْنِ الْفِئَتَيْن تَحْدِيدًا لْعِبتا دَوْرًا بَارِزًا عِنْدَ كُلِّ الشُّعُوب وَلَيْس الشَّعْب الْمِصْرِيّ فَقَط ...

((الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ))

(الْمُرْتَزِقَة)

الْمُرْتَزِقَة وَهِي جَمَاعَةٌ مِنْ الْبَشَرِ يَعِيشُون بِلاَ هَدَفٍ يَرْسُم لَهُم أهدافهم أُنَاسٌ آخَرُون مُقَابِل الْمَال، عَلى مُسْتَوى الْأَفْرَاد يَتِمّ تأجيرهم لِلْقَتْل أَو السَّلْب وَالنَّهَب، أَمَّا عَلى مُسْتَوَى الدُّوَل فَكَانَت الدُّوَل الضَّعِيفَة عَسْكَرِيّا تَسْتَعِين بِهِمْ فِي الْجُيُوش عِنْد تَعَرُّضُهُم لِهُجُوم أَوْ خَطَرَ خَارِجِيّ، مِنْ خِلَالِ التَّعْرِيف وَالْوَصْف السَّابِقِين يَتَّضِح لَنَا أَنْ هَذِهِ الْجَمَاعَات لَا لوطن لَهَا وَلَا دِينَ يَدِينُون بِه، وَطَنِهِم وَدِينُهُم الْمَالِ فَقَطْ، فقَدْ يَكُونُ أَحَدُهُمْ مَثَلًا مَسِيحِيّ ويستأجره مُسْلِم للانتقام مِن مَسِيحِيّ أَوْ الْعَكْسُ، وَعَلَى مُسْتَوَى الدُّوَل قَد تَسْتَعِين بِهِم دَوْلةٍ أُخْرَى لِلْحَرْب مَع دَوْلَتِهِم، وَكَوْنُ هَذِهِ الْأُمُورِ قَدْ نَفَدتْ صَلَاحِيَّتِهَا فِي ظِلِّ التَّطَوُّر الْهَائِل فِي مُعَدَّات الْحَرْب فَقَدْ تَمَّ اخْتِفَاؤهم مِن الْمَشْهَد السِّياسِيّ والاجتماعي فَتْرَةً مِنْ الزَّمَنِ، وَلَكِن سُرْعَانَ مَا عَادُوا لِلظُّهُور مَرَّةً أُخْرَى فَالْحَرْب ما زالَت وستظل إِلَى يَوْم الْقِيَامَةِ، وَلَكِن ظُهُورِهِم كَان يَتَنَاسَب مَع تقنيات العَصْرِ الحَدِيثِ، وبخَاصَّة إنْ الْحَرْبَ بِمَفْهُومِهَا الْقَدِيمِ لَمْ تَعُدْ تُسْتَخْدَم إِلَّا فِي أَضْيَق الْحُدُود، وَالْحَرْب الْحَقِيقِيَّة الْآنَ هِيَ الْحُرُوب الدَّاخِلِيَّة والانقسامات، حُرُوبٌ فِكْرِيَّةٌ هدفها تَدْمِير الْعُقُول قَبْلَ الْأَجْسَادِ، بمعنى أَوْضَح اُقْتُلْ نَفْسَك بِنَفْسِك.

وَحَتَّى يَتَثَنَّى للدول الاسْتِعَمَارِيَّة تَحْقِيق أَهْدافَها عَلَيْهَا اِسْتِغْلال هَؤُلَاء الْمُرْتَزِقَة إمَّا بِالْفِتْنَة بَيْن طَوَائِف الشَّعْب وَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا الْكَثِيرِ مِنْ هَذَا، مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ والمسيحين، بَل وَبَيْن طَوَائِف الدِّيْن الْوَاحِد السُّنَّة وَالشِّيعَة الموارنة والدروز، أَوْ مِنْ خِلَالِ تَرْوِيج الشَّائِعَات ضِدّ نِظَامُ الحُكْمِ فِي هَذِهِ الدُّوَل وَهُم يَعْتَمِدُون عَلى عُلَمَاء درسوا فُنُون حَرْب الإشاعات، بِحَيْثُ أنَّ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ الْإِشَاعَة حَقِيقَة يَرَاهَا الْجَمِيع فَهُم يَسْتَخْدِمُون التَّأْثِير النَّفْسِيّ عَلى مُتَلَقِّي الْإِشَاعَة بِدَايَتُهَا صَادِقٌ بمعنى أَنَّهُ حدثَ بِالْفِعْل وَنِهَايَتُهَا أَصْدَق فَهِي النَّتَائِج الَّتِي نَرَاهَا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِع، لَكِن قَلْب الْإِشَاعَة أَجْوَف دَائِمًا لَا يَمُت بِصِلَة لبداية الظَّاهِرَةِ وَلَا لنتائجها، وَإِنِّي لَا أَلُوم عَلَى عَامَّةِ الشَّعْب فِي تَصْدِيقِ مِثْلِ هَذِهِ الإشاعات، لِأَنَّهَا تُدَار باحتراف ومهنية يَصْعُبُ عَلَى أَصْحَابِ الْهُمُوم والمنغصات أَن يربطوا أَحْداثِها ليتبينوا صَدَقَ أَوْ كَذِبٌ هَذِه الْإِشَاعَة، أَلَم تَمْر عَلَيْنَا إشَاعَة قُتِل المجندين فِي الْجَيْشِ الْمِصْرِيّ عَلَى أَنَّهَا مُدَبَّرَةٌ مِنْ القيادات، لِإيجَاد مبررا لِحَرْب الْإِخْوَان الْمُسْلِمِين، أَلَم يساورنا الشَّكّ وَلَوْ لبرهة أَنَّ هَذَا الْكَلَامِ حَقِيقِيّ؟ البداية حقيقة وهي مقتل الجنود والضباط الشهداء على يد الإرهاب الغاشم، والنهاية حقيقة وهي محاربة الإرهاب بكل قوة.

لكن قلب الإشاعة بعيد كل البعد عن البداية والنهاية، قلب الظاهرة هو الإشاعة التي يطلقها هؤلاء المرتزقة فنتشر انتشارا واسعا في ظل الظروف التي يعاني منها المجتمع والسبب الآخر أن بعض الأشخاص لا يكون لديهم القدرة على تلقي الصدمات وبخاصة إذا كانت الصدمة كبيرة كفقدان الابن أو الأخ، هذه الصدمة كافية أن تغيب عقله وإدراكه فيصدق أي شيء يقال..

إنَّ هَؤُلَاءِ الْمُرْتَزِقَة خائنون لِلَّه وَالْوَطَن وَالدِّين، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ بِنِسْبَة كَبِيرَة عَنْ حَالة الْعَداء بَيْن الْمَوَاطِن وَالدَّوْلِة بِكُلّ مؤسساتها، وَعَلَى الدَّوْلَة أَنْ تَقِفَ لَهُم بِالْمِرْصَاد وَتَظْهَر عُيُوبِهِم ويحاكمون عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنْ الْجَمِيع، فَلَا سَبِيلَ لمحاربتهم إِلَّا عَنْ طَرِيقِ كَشْف تزييفهم لِلْحَقَائِق، وَلَا أَظُنُّ أَنَّهُم يُخْفُون عَلِيّ أَجْهِزَةُ الدَّوْلَةِ الاستخبارية، أَوْ عَلَى الْأَقَلّ تَمَكَّنَت الدَّوْلَة مِنْ كَشْفِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ، كُنْت أَتَمَنَّى أَنْ مَنْ يتمُّ كَشْفُه يُعْرضْ عَلَى جَمِيعَ وَسَائِلَ الإِعْلَامِ بتهمته وَالْعُقُوبَة الرادعة، وَهَذَا لَيْسَ دُور الدَّوْلَة فَقَطْ إِنَّمَا دورنَا جَمِيعًا، لَقَد بُحّ صَوْتنَا وَنَحْن ننادي عَلى الشَّبَاب أن اِبْتَعَدُوا عَنْ مروجي الإشاعات، لَكِنْ بِلَا جَدْوَى، لِأَنَّنَا ننادي بِأَصْوَات أُحَادِيَّة، فِي أَسْوَاق مكتظة بِالْبِشْر، لا بُدَّ أَنْ يَطَّلِعَ كُلٌّ مِنَّا بِدَوْرِه الْحَقِيقِيّ الْأَسرة وَالْمَدْرَسَة وَوَسَائِلِ الإِعْلَامِ وخطباء الْمَسَاجِد، إِنِّي أُطَالِب وَزَارَة التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيم بتوقيع الْكَشْف الطِبْي النَّفْسِيّ عَلَى كُلّ مَنْ يَعْمَلُونَ فِي الْعَمَلِيَّة التَّعْلِيمِيَّة، وَكَذَا خُطَبَاء الْمَسَاجِد.

فَهَؤُلَاء لا بُدَّ مِنْ التَّأَكُّد مِنْ سَلَامَتهُم النَّفْسِيَّة ووطنيهم قَبْلَ أَنْ تُسْنَد إلَيْهِم هَذِهِ الْأَمَانَةِ، إن الِاسْتِهَانَة بِدور الْمَدْرَسَة وَالْخِطَاب الدِّينِيُّ هُوَ الَّذِي أَدْخَلْنَا فِي هَذَا النفق الضَّيِّق وَلَن نَخْرُجُ مِنْهُ إلَّا إذَا عَادَتْ الْمَدْرَسَة هِي الْبَيْتِ الثَّانِي، هُنَاك أَطْفَال لَا يَتَجَاوَزُونَ الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِم يَحْمِلُون عداء كَبِيرًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُؤَسَّسات الدَّوْلَة، مِنْ أَيْنَ لَهُمْ هَذَا الْعَداء؟! الْأَسِرَّة وَالْمَدْرَسَة وَالْكُتَّاب فِي مَنْطِقِهِ وَاحِدَة وَيَسِيرُون عَلى نَهْج وَاحِد دُون رَقابَة مِنْ الدّوْلَةِ، فَمِنْ أَيْنَ يَأتِي النُّور، التَّعْلِيم وَالْخِطَاب الدِّينِيّ هُمَا الْمَخْرَج والمفر..

اسْتَقِيمُوا يَرْحَمُكُمْ اللَّهُ..

((الْمَبْحَثُ الثَّانِي))

(الرُّوَيْبِضَة)

هُم المهمشون فِي الْمُجْتَمَعِ، لَيْسَ لَهُمْ دورٌ سَوى أَنْ يَأْكُلُوا ويتكاثروا، حَيَاتِهِم تملأها الرتابة مِنْ تَكْرَارِ جَمِيع أَعْمَالِهِم اليَوْمِيَّة والأسبوعية بل والشهرية ولن أكون مبالغا لو قلت السنوية أيضا، لا جديد لديهم، منشقين عَن الْمُجْتَمَع لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْمُجْتَمِعَ يَنْفِر مِنْهُم، هُمْ فِي الْأَصْلِ فاشلون اِجْتِمَاعِيًّا، وَيُعَوِّلُون الْفَشِل عَلى الْمُجْتَمَع والظُّروف، هَؤُلَاء عِنْدَ أَوَّلِ فِرْصَة ظُهُور تمنح لَهُمْ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ يستغلونها أَسْوَأ اِسْتِغْلال، وللأسف الشَّدِيد عَادَة لَا يَنْتَبِهُ إِلَيْهِم مجتمعهم الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ، فَتَكُون فُرْصَة اِصْطِيادِها سَهْلَة جِدًّا مِنْ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَالثَّمَن هُو الْحُصُول عَلَى الْمَال والسُّلْطَة وَالْجَاه، هَؤُلَاء يتحولون إِلَى طُوفان يقْضي عَلَى الأخْضَرِ وَاليَابِسِ، تَخَيَّلُوا أَنَّهُ قَدْ يقْضي عَلى عَشِيرَتِه وَأَهْلِه إِذَا شَعر أَنَّ أَحَدَهُمْ قَد يُعَارِضُه أَو ينافسه أَوْ يَمْنَعُهُ مِنْ السَّيْرِ فِي طَرِيقِهِ، أَوْ عَلَى الْأَقَلّ يَنْسَحِبْ مِنْ طَرِيقِهِم ويبتعد عَنْهُم، فَهُو بِحَاجَةٍ إِلَى مُجْتَمَع لَا يَذْكِّرُهُ بنقاط ضَعَّفَه وَمَاضِيه، انتقامهم شَدِيد مِنْ أَيِّ أَحَد يَقِفُ فِي طَرِيقِ صُعُودِهِم، عَادَة مَا يَصِلون إِلَى الْمَجْدِ عَلَى جُثَث ضَحَايَاهُم، يُصَابُون بِشَهْوَة الْمَال وَالشُّهْرَة، وَهُمْ فِي سَبِيلِ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ عَلى اسْتِعْدَاد أَنْ يُنَفِّذوا أَيِّ شَيْءٍ يُطْلَبُ مِنْهُمْ، وَعَادَة مَا يُوضَعُ فِي أَيْدِيهِمْ الْجَانِب المادي.

لتعويض النَّقْصِ الْمَوْجُودُ لَدَيْهِم فَهُمْ كَانُوا يَلْتَمِسُونَ العَطَاءات والصدقات مِنْ الناس، وَهُمْ الْآنَ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَهُم لَن يَكُونُوا يُوسُف في كرمه وعفوه بل على العكس ينتقمون ليس ممن عاشوا معهم فقط إنما ينتقمون من المجتمع بأثره، أَيْضًا هَؤُلَاء خَانُوا اللّهَّ وَرَسُولُهُ وَخَانُوا الوَطَن وأكرر أَنَّهُم أَيْضًا لَيْسُوا بِبَعِيد عَنْ أَعْيُنِ وأجهزة الدَّوْلَة، وَيَسهُل التَّعَرُّف عَلَيْهِمْ فِي أَوَّلِ مُقَابَلَة مَعَهُم، فَهُم يَحْمِلُون فَوْق رُؤُوسهم شارات الذُّلّ وَالْخِسَّة والوضاعة مَهْمَا ارْتَدُّوا مِن أَثْوَاب جَمِيلَة أو تقلدوا مَنَاصِب عُليا، لَن يخدعونا وَعَلى الأَجْهِزَة الرقابية التَّعَامُل مَعَهُم بحسم وَأَيْضًا عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَع فِي جَمِيعِ الْقَنَوَات الفضائية وَوَسَائِل التَّوَاصُل، إنْ تحدَّث هَؤُلَاء الرَّوَيْبِضَة فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ نَذِير شُؤُم لِلْمُجْتَمَع الْمِصْرِيّ وَالْعَالِم أَجْمَع لِأَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَة...

((الْبَابُ الثَّالِثُ))

(طُوفان الْأُمَم)

رَاق لِي هَذَا اِلاسْمِ كَي أَطْلَقَه عَلى الْجَهْل وَأَصررت أَنْ أَفْرَدَ لَهُ بَابًا خَاصًّا، وبخَاصَّة أنِّي رَأَيْتُ الْجَهْل عَلى مَرِّ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَان مُعَوَّل هَدَم الحضارات، هُو تَمَامًا كالطوفان فِي فِعْلِهِ وآثاره، فَهُوَ يَقْضِي عَلى الأخْضَرِ وَاليَابِسِ، وَيَقْضِي عَلَى أَصْحَابِهِ قَبْلَ أَعْدَائِه، الْجَهْلُ الَّذِي أعنيه لَا يَتَمَثَّلُ فِي جَانِبٍ وَاحِدٍ، إنَّمَا فِي جَوَانِبِ عَدِيدَة، لَعَلّ أَقَلُّهَا خَطَرًا وَأَخَفِّهَا تَأْثِيرًا هُوَ ذَلِكَ الْمَفْهُومِ الشَّائِع عَنْ الْجَهْلِ، وَهُو الْأُمِّيَّة وَهَذَا الْجَانِب هُو الْوَحِيد الَّذِي لَا أعنيه فِي بَحْثَيْ، لِذَا سأحاول جَاهِدًا شَرْح الْجَوَانِب الْأُخْرَى مِنْ الْجَهْلِ وَآثَرَهَا عَلى الْمُجْتَمَعات والشعوب الَّتِي تَنْتَشِر بِهَا، ويتناول المبحث الثاني مجموعة من العوامل القدرية، قد يكون وجودها منفردة غير جيد لدرجة كبيرة لكن وجودها مع وجود العوامل السابقة جعل لها دورا كبيرا في العدوان على مصر...

((المبحث الأول))

(الْجَهْل)

أَعْلَم تَمَامِ الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ أُفكِّر حَتَّى فِي اخْتِيَارِ عُنْوَان كِتَابِي هَذَا، أَنَّنِي سأواجه حَرْبًا شرسة مِن مروجي الإشاعات، وَقَدْ أُتُّهم بِالْخِيَانَة وَالْعُمَالَة، أَوْ بِأَيِّ وَصْفٌ آخَر يَتَنَاسَب مَعَ هَوَىً مَنْ أعنيهم مِنْ هَذَا الْبَحْثِ، وَلِهَذَا فَإِنَّنِي أسْتَبِق الْقَوْل لَدَيْهِم، وَأَوْضَحَ أَنَّ الْجَهْلَ الَّذِي أَتَحَدّث عَنْهُ هُوَ نَتِيجَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِمَا قَدَّمْته فِي الْفُصُولِ السَّابِقَة، فَهَذِهِ لَيْسَتْ حَمْلَة لتجهيل الْمُجْتَمَع وَلَا أَمْلُكُ هَذَا الْقَوْل وَلَسْت أَهْلًا لَهُ، فَالْمُجْتَمِع الْمِصْرِيّ مِنْ أَعْلَمُ الشُّعُوب وأبصرها، فَهُوَ أَوَّلُ شعب صَانِعًا لَأَقْدَم الحضارات وأعرقها وَبَرَعَ فِي جَمِيعِ فُرُوعِ العُلُومِ وَالفُنُونِ وَالآدَابِ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ شَهَادَة مِنِّي لمجتمعنا لَكِنَّهَا حَقِيقَةً لَا يُنْكِرُهَا حَتَّى أَعْدَؤنَا، وَلَكِنَّنِي إذ أَتَحَدّث عَنْ الْجَهْلِ فَلَا أَعْنِي الْجَهْل مُقَابِل الْعِلْم، وَلَكِنَّنِي أرنو إلَى جَوَانِب كَثِيرَة أَوَّلُهَا وَأَهَمُّهَا الْجَهْل عِنْدَ الْمُوَازَنَة بَيْن النَّظَرِيَّات الْمَكْتُوبَة وَالْوَاقِع الْعَمَلِيّ، أَعْنِي أَن تَكُونَ النَّظَرِيَّات الْعِلْمِيَّة قَابِلَة لِلتَّحْقِيق، فَحِينَمَا أَضَع تَصَوُّرًا لتطوير شَيْء مَا، أَو النُّهُوض بِه، لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ تصوراتي وخططي قَابِلَة لِلتَّحْقِيق، وَلَا تَكُونُ مُمْكِنَةً نَظَرِيًّا ومستحيلة عَمَلِيًّا، وَلَدَيْنَا أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ عَلى مفكرين وفلاسفة وَضَعُوا نَظَرِيَّات اقْتِصادِيَّة عِنْدَمَا سَمِعْنَا عَنْهَا تَخَيَّلْنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ إذَا وَصَلُوا لمراكز صَنَع الْقَرَار.

سيحولون مِصْرَنَا إلى جنَّة فِي غُضُونِ أَشْهُر مَعْدُودُة، وَمَع الْأَسَف الشَّدِيد حِينَمَا تَقَلَّدُوا مَنَاصِب تَمَكُّنِهِمْ مِنْ تَنْفِيذِ مَا أَعْلَنُوا عَنْه، فشلوا فَشَلا زريعا، وَبِدُون ذِكْرُ أَسْمَاءِ، فَأَنَا فِي دراستي هَذِهِ لَا أرنو إِلَى التَّشْهِير وَلَكِنَّنِي فَقَط أُحَاوِل إزَاحَة الستار حَتَّى تَتَّضِح لَنَا الرُّؤْيَة...

وَثَانِي هَذِه الْجَوَانِب الْمُرْتَبِطَة بِالْجَهْل، قَدْ يَكُونُ الْجَهْلُ مَقْصُودًا أَوْ تَجَاهُلًا فَكَمَا قُلْنَا إنَّ الْحَرْبَ عَلى مِصْر دَائِرَة مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَهُنَاك أُنَاسٌ متخصصون فِي إِشْعَالُ النَّارِ فِي الهَشيم، أَحْيَانًا لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَان الرَّدّ بِالْحُجَّة لَيْس جَهْلًا، وَلَكِنْ لِأَنَّ الْوَاقِعَ الَّذِي يعيشه يَجْعَلُه يَخْجَل مِن مُحَاوَرَة الَّذِي أمَامِه، فَالَّذِي يحاورك عَلِيمًا بأوضاعك أَكْثَر مِنْك، يَسْتَغِلّ الظُّرُوف الَّتِي تعيشها ليشعلها حَرْبًا شَعْواء عَلى الوَطَن، بِكُلّ مَا فِيهِ وَأَنْتَ لَا تَمْلِكُ حَقَّ الرَّدِّ، حَتَّى إذَا كُنْت مقتنعا تَمَام الاقْتِناع بِأَنَّه ذَا مَصْلَحَة، لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ حَقِيقَةِ بَلْ حَقَائِقُ تعيشها أَنْتَ وَأَنَا فِي كُلّ يَوْمٍ وَفِي كُلّ مَكَان، إنَّ وُجُودَ الْفَسَادُ فِي أَيّ مَكَان فِي الْعَالَمِ أَمْرٌ لَا اعْتِرَاض عَلَيْهِ، فَهِيَ طَبِيعَة فِي جَمِيع الْبَشَر، بَلْ إنَّ قَانُونَ الطَّبِيعَة يُحْتِّم وُجُود الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، لَكِنَّ هَذَا الْحَدِيثِ إذَا لَامس قَلْبًا مَجْرُوحًا بَل مُحَطَّمًا نِهائِيّا فَهِي تُرْبَة خَصِبَةٌ لِانْتِشَار هَذِه الْأَفْكَار، تَخَيَّل أَنَّك تَعَرَّضَت لظلم مِنْ أَخِيك فِي مِيرَاثِ أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ وجاءك مِن يُحَدِّثُك عَنْ الظُّلْمِ، أَلَيْسَ مِنْ الْمَنْطِقِيّ أَنْ تَسِيرَ مَعَهُ فِي نَفْسِ الِاتِّجَاه؟ هَذَا الْجَهْل الْمُتَعَمِّد مِنْ الْمَظْلُومِ يَفْتَح أَبْوَابًا أمَام الْمُتَحَدِّث لِإِشْعال الْفِتْنَة بَيْنَك وَبَيْنَ أَخِيك، إذًا الْجَهْلُ الَّذِي نَتَحَدَّث عَنْهُ هُنَا جَهْل عَنْ عَمْدٍ وَلَيْس جَهْلًا حَقِيقِيًّا.

جَهْل الْغَرَض مِنْهُ الْهُرُوبُ مِنْ حَدِيثِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُشْعِلَ نارَ الفِتْنَةِ بَيْنَك وَبَيْنَ أَخِيك، وَهُنَا أَكُون مُضْطَرًّا دُون أدنى رَغْبَةٍ فِي سَمَاعِ مَا يُرَدِّدُه الْآخَرُون دُون اقْتِناع فِي بَادِئِ الْأَمْرِ، وَعِنْد تَكْرَار مِثْلِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ أَكُون مُؤَهَّلا لِلتَّصْدِيق، لِأَنَّ مَا يُقَالُ يَمِسّ الْوَاقِعِ الَّذِي تعيشه، وَلَا نُرِيد الْغَوْص فِي تَفَاصِيل أَمْثِلَةٍ حَيَّة نعيشها أَنَا وَأَنْتَ وَجَمِيعُ مَنْ حَوْلَنَا، إنَّ هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ الْفَسَادِ الاجْتِمَاعِيّ عَامِلٌ مُسَاعِدٌ لِانْتِشَار الْجَهْل الممنهج، جَهْلًا يَمسّ نَوَاحِي بِعَيْنِهَا وتحديدا جِسْم الدَّوْلَة الْمِصْرِيَّة، فَالْحَرْب الدَّائِرَة هدفها وَاحِد، هُوَ الْجَهْلُ بِقِيمَة الوَطَن بِقِيمَة الْأَرْض، حَيْثُ أنَّ الرَّاعِي لِهَذِه الْحَمَلَة يضعك فِي مُوَاجَهَةٍ صَرِيحَةٍ وواضحة بَيْن الظُّرُوف الاقْتِصَادِيَّة الَّتِي تعيشها وَوَضَع غَيْرِك مُعَلَّلًا ذَلِكَ بِالْفَسَاد السِّياسِيّ، وَهَذَا مَا أعنيه مِنْ كُلِّ كَلَامِي، إنَّ مُجَرَّدَ اقتناعك بِهَذِه الادعاءات يُدْخِلك فِي نَفَق ضِيق يَكُون بِدَايَة لِجَهْل مُجْتَمَعِي كَبِير، وَذَلِكَ لِأَنَّنَا متشابهون كَثِيرًا فِي ظروفنا مِمَّا يَجْعَلَنَا نُصَدِّق كُلَّ مَا يُقَالُ، إنَّنَا نواجه عَدُوًّا بَصِيرًا بنقاط ضَعْفِنَا، عَلِيمًا بِكُلّ دروبنا الَّتِي نَسِير فِيهَا لِئَلَّا مُنْفَرِدَيْن، يُحْسِن اصطيادنا فرادى، عَنْ طَرِيقِ إطْلَاق الشَّائِعَات الَّتِي تَحَطَّم مِن لَدَيْه أَمَّلَ فِي غَدٍ أَفْضَل، هَذَا الْجَهْلُ الَّذِي جَعَلَنَا نلقي تَبِعَه كُلَّ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ اِنْهِيَار فِي جَمِيعِ مناحي حَيَاتِنَا عَلى السُّلْطَة، مَع أَنَّنَا لَوْ عُدْنَا إلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ لِعِلْمِنَا أَنَّ الْفَسَادَ لا يأتي مِن القمة، بَلْ يَبْدَأُ مِنْ الْقَاعِدَةِ فَيُصِيب الْجِسْم كُلُّه، وَعَلى الْمُسْتَوى الْعِلْمِيّ أَنَّ الْأَمْرَاض الَّتِي تُصِيبُ سَطْحِ الْجِلْدِ يَسْهُل السَّيْطَرَةُ عَلَيْها والتعافي مِنْهَا بِعَكْس الْأَمْرَاضِ الَّتِي تستوطن دَاخِل الْجِسْم، أَنا لَا أدافع عَنِ السُّلْطَةِ فَأَنَا لَسْت صَاحِب مَصْلَحَةٍ مَعَ هَذَا النِّظَامِ أَوْ غَيْرِهِ.

وَلَكِنِّي صَاحِب مَصْلَحَةٍ فِي هَذَا الْبَلَدِ، كَمَا أَنَّنِي لَا أُخَلِي سَبِيلَ هَذَا النِّظَامِ وأبرر لَه، بَلْ أَقُولُ كُلُّنَا شُرَكَاءُ فِيمَا آلَ إِلَيْهِ الوَطن، لَكِنَّنِي فَقَط أُحَمِّل كُلّ طَرَف مَسْئولِيَّتَه وأحاول إزَاحَة الستار عَن مُشْكِلَةٍ شَائِكَةٍ وخطيرة، هِي زَرِيعَة للانقسام وَالتَّفَرُّق الدَّاخِلِيّ.

وَثَالِث هَذِه الْجَوَانِب هُو الإشاعات الَّتِي يُطلقها المغرضون حَوْل سياسات وبرامج الدَّوْلَة، وَالَّتِي قَدْ تُصَادِف بِنِسْبَة كَبِيرَة وَاقِعًا مَلْمُوسًا، أَلَم نَسْمَع شائعات عَن لِقَاح فَيْرُوس كورونا، أَنَّه لِقَاح يُصِيب الشَّعْب بالعقم، الْإِشَاعَة صَادَفَت مَعَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ الْمُوَاطِنِين نَتِيجَة لِأَمْرَاض طَبِيعِيَّةٍ وَكَانَت نَتِيجَة التحاليل فِعْلِيًّا عقم، لَمْ يَبْحَث مُرَوِّج هَذِه الْإِشَاعَة عَنْ الْأَسْبَابِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي أَدَّتْ إلى هَذَا العقم عِلْمِيًّا، فَهُوَ لَا يَعْنِيهِ ذَلِك، هُوَ فَقَطْ يَعْنِيه انْتِشَار هَذِه الْإِشَاعَة، وَالْحَقِيقَة الْعِلْمِيَّة تَقُولُ أَنْ هُنَاكَ أَدْوِيَة إذَا تَفَاعَلْت مَعَ أَدْوِيَةٍ أُخْرى قَدْ تَكُونُ لعلاج نَفْس الْمَرَض تُؤَدِّي إلَى نَتَائِجَ عكسية، أَضِف إلَى ذَلِكَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِمَّن تَلْقَى هَذِه الجرعات لَمْ يَكُونُوا مُتَزَوِّجِين أَصْلًا، وبالتالي يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِم عقم قَبْل تَلَقِّي الجرعات، وَهُنَاكَ مَنْ يُعَانِي مِنْ مَرَضٍ مُعَيَّن أَثَّرت عَلَيْه الجَرَعَة فِعْلِيًّا نَتِيجَة لِقُصُور الْجِهَاز المناعي لَدَيْه، وَهُنَاك الْكَثِيرِ مِثْلُ هَذِهِ الْحَالَاتِ الَّتِي أَصَابَهَا العقم بالتزامن مَع تَلَقِّي الْمصل أَو اللِّقَاح الْخَاصّ بكرونا، وَهَذِه الْحَالَات يَعْلَمُهَا المتخصصون فِي هَذَا الْمَجَال، إنَّ حَصْرَ هَذِهِ الْحَالَاتِ بِالتَّأْكِيد سيمثل نسبَة كَبِيرَة فِي دَوْلَةٍ مِثْل مِصْرَ فِي تَعْدَادِهَا، هَذِه الأرْقَام إذَا تَمَّ إعْلَانُهَا مِن مروجي الإشاعات يَقَع الْكَثِيرِ مِنْ الْمُجْتَمَعِ تَحْتَ تَأْثِيرِهَا، لَا يُوجَدُ أَب يُقْتَل أَبْنَاءه لِمُجَرَّد أَنَّهُم خَالَفُوهُ فِي الرَّأْيِ، هَذَا هُوَ الْجَهْلُ الَّذِي أعنيه..

وَرَابِع هَذِه الْجَوَانِب هُوَ أَنْ عَدَمَ إدراكي لِكُلِّ الْأُمُورِ لَا يُعْتَبَرُ عَيْبًا، فَأَنَا لَسْت مُتَخَصِّصًا فِي كُلِّ الْمَجَالات، وَهَذِه حَقِيقَة أَقَرَّهَا الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ (اسألوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) إذْن قَوْلِي لَك أَنَّك لَسْتَ مُلِمًّا بِأَمْرٍ مَا شَيْءٌ لَا يَعِيبُك مُطْلَقًا، وَلَا يَنْتَقِصُ مِنْ حقوقك شَيْئًا، لَكِن الْمُشْكِلَة تَكْمُن فِي أَنَّنَا الْآن نَتَحَدَّث فِي أَيِّ مَجَالٍ مِن مُنْطَلِق الْعِلْم التَّام وَالْجَزْم بِمَا نَقُولُ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ، وَلَا حَقِيقَةَ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ سِوَاهَا، أَصْبَحْنَا عُلَمَاءُ وَفُقَهَاءُ فِي جَمِيعِ الْمَجَالاتِ وَالْعُلُوم، وَرُبَّمَا أَهْل أَذْكُر لَو سُئِلُوا لَن يَجْزِمُوا كَمَا نَجْزِم نَحْن.. وَخَامِس هَذِه الْجَوَانِب هُوَ أَنْ القَرارَات السِّيَاسِيَّة والاقتصادية لَيْسَتْ بِهَذِهِ السُّهُولَةِ، فَنَحْن نَخْضَع لأعراف وَقَوَانِين دَوْلِيَّة تحكم جَمِيع الدُّوَل، لَيْسَ كُلُّ مَا يُقَالُ يُمْكِنُ تَنْفِيذِه عَلَى أَرْضِ الْوَاقِع، هَكَذَا تَعَلَّمْنَا مِنْ آبَائِنَا، اُنْظُرُوا إلَى أَيِّ مُشْكِلَة عَائِلِيَّة وَلَيْسَت دَوْلِيَّة نُقِع فِيهَا فِي حَيَاتِنَا اليَوْمِيَّة مَع أَقَارِب أَوْ جِيرَانِ، كُنَّا فِي صَبَأْنَا نرى مِنْ وَجْهة نَظَرِنَا حَلًّا يُنْهِي الصِّرَاع بِسُرْعَة، وَلَكِنْ كَانَ مِنْ يكبروننا يَرَوْن الْحَلّ فِي مَكَان بَعِيدٍ عَنْ تصوراتنا، وَكُنَّا نَخْتَلِف مَعَهُم مَرّ الِاخْتِلَاف، وَلَكِن بِمُرُور الْوَقْتِ كَانَ يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّهُم عَلَى حَقّ، هُنَاك أُمُور لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتِهَا أَو حَتَّى الْعِلْم بِهَا إلَّا فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ، وَبِالْقِيَاس عَلَى ذَلِكَ قِصَّةُ سَيِّدِنَا مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَالْعِلْم هُنَا لَمْ يَكُنْ لِمُوسَى بالرغم من أَنَّهُ نَبِيٌّ اللَّهِ وَكَلِيمُهُ، فَالْأَمْرُ غَيْرُ مُتَعَلِّقٍ بِالدِّينِ فَقَط أو المعرفة فَقَط لَكِنْ كَانَ للخبرة والتواجد فِي قَلْبِ الْحَدَثِ دور؛ فالخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ عَالِمٌ بِأَهْل الْمِنْطَقَة وَأَخْلَاقِهِم وَعَادَاتِهِم، ومن هُنَا كَانَ رَدُّ فِعْله بناء عَلَى عِلْمِهِ، هَذَا الْفِعْلُ رَآه سَيِّدُنَا مُوسَى أَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ مَنْطِقِيًّا.

بَلْ إنْ تَصَرُّفَاتِ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَثَّارَت حَفِيظَة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطَلَبَ مِنْهُ مُفَارَقَتُه، لِأَنَّهُ يَرَى متناقضات فِي أَفْعَالِ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِ الْحَدَثِ، فَالْقَرَار تَحْكُمُه عِدَّة قَوَاعِدَ وَتُؤَثِّر عَلَيْه، وَأَوَّل هَذِهِ الْقَوَاعِدِ حَجْم المسئولية، فَكُلَّمَا زادت المسئولية كُلَّمَا كَانَ هُنَاكَ تأنٍ وتريث فِي اتِّخَاذِ القَرَارَات، وَثَانِيهِمَا الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ مِنْ الْحَدَثِ، فَالْبَعِيد عَنْ الْحَدَثِ مِنْ الصَّعْبِ أَنْ يَكُونَ قَرَارِه لِصَالِح مَنْ هُمْ فِي قَلْبِ الْحَدَثِ، لِأَنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِحَجْم الْمُعَانَاة الَّتِي يُعَانِي مِنْهَا مِنْ هُوَ فِي قَلْبِ الْأَحْدَاث، وَثَالِثُهَا التَّنَبُّؤ بالنتائج أَو التَّوَقُّع، فدراسة أبْعَاد وتداعيات أَيْ قَرَارٍ يُؤَثِّر بِالتَّأْكِيد عَلى شَكْلِه.. وَأَخِيرًا لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ الديكتاتورية بِنِسْبَة لَا تُؤَثِّرُ عَلى الحريات وبخَاصَّة فِي بَعْضِ القَرَارَات الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى وَقْت، وَلَا بُدَّ مِنْ التَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى وَجْهِ السُّرْعَة فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ قَدْ تَكُونُ الدِّيمُقْراطِيَّة أَسْوَأُ مِنَ غَيْرِهَا، فَهُنَاك قَرَارَاتٌ ترتبط بِالْمَصِير، وَتَأَخُّرُهَا قَد يَقْلِب الدُّنْيَا رَأْسًا عَلى عَقِب، هَذَا عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَاد فَمَا بَالُ الْمُجْتَمَعات الدَّوْلِيَّة، وَأَنَا هُنَا أُشِير إِلَى كُلّ مِنْ يَقْتَرِح حُلُولًا مُمْكِنَةٌ لأزماتنا الاقْتِصَادِيَّة والسياسية وَهُو بمنأى عَن الْمَعْرَكَة، أَبْسَطَ شَيْءٍ قَرَار وَقْف إطْلَاق النَّارُ عَامٌّ 1973 لَمْ يَحْصُلْ عَلَى الرِّضَا التَّام مِنْ الْجَمِيعِ لِأَنَّ كُلًّا مِنَّا يَنْظُرُ إِلَى الْمَوْقِفِ بناء عَلى تَصَوُّرِه، لَكِنْ مِنْ يَتَحَمَّلُ المسئولية عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَشْهَدِ مِنْ جَمِيعِ الاتِّجَاهَات، فَالْقَاعِدَة تَقُول دَفْعُ الضَّرَرِ مُقَدَّمٌ عَلى جَلْبِ النَّفْعِ، لِذَلِكَ أَقُولُ لَا يَشْعُرُ بِقِيمَة الْحَدَثِ إِلَّا مِنْ شَهِدَه، وَفِي وَقْتِهِ تَحْدِيدًا، هَذَا هُوَ مَا أعنيه مِنْ الْجَهْلِ الَّذِي تَنَاوَلَتْه كَأَحَد أَعْدَاء مِصْرَ فِي تَارِيخُهَا الْمَعَاصِر..

((الْمَبْحَثُ الثَّانِي))

هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعة مِنْ الْعَوَامِلِ الْقَدَرِيَّة الَّتِي كُتِبَتْ عَلَى بَلَدِنَا الْحَبِيب، بَل وَمُعْظَم بُلْدانِ العالَمِ، لِذَلِكَ لَمْ أَعْتَبَرَ هذه العوامل أعداء حَقِيقِيَّيْن فَهُى عَوَامِل مُسَاعَدَةٌ عَلَى الانْهِيَار، لَكِنْ نَظَرًا لِمَا تُعَانِيه مِصْرَ مِنْ حَرْب ضَرُوس عَلَيْهَا فَإِنَّ هَذِهِ الْعَوَامِل الأحادية الْمُتَفَرِّقَة كَانَ لها أَثَرًا على مِصْر بشكل أكبر مِنْ مثيلاتها..

هَذِه العَوَامِلُ الَّتِي أعنيها تَتَمَثَّل فِي مَجْمُوعة الْمَرْضى، مَرْضى الْقُلُوب وَالْعُقُول المتواجدين دَاخِل الْمُؤَسَّسَات وَالْهَيْئَات الحُكُومِيَّة وَبِخَاصَّة الْمُؤَسَّسَات الخدمية الَّتِي تَتَطَلَّب احتكاكا مُبَاشِرًا مَع الْمُوَاطِنِين، كُلُّنَا يعْلَمُ أَنَّ أَيَّ دَوْلَة عِبَارَةٌ عَنْ مُؤَسَّسات وَأفْرَاد، وَأن انْطِبَاع الْفَرْد عَن الدَّوْلَة إِنَّمَا يَتَكَوَّنُ مِنْ خِلَالِ مؤسساتها وَطَرِيقَة الْخِدْمَة الَّتِي تُقَدَّمَ للمواطنين، وبناء عَلَيْهِ فَإِنْ وُجُودَ هَؤُلَاء الْمَرْضَى فِي هَذِهِ الْمُؤَسَّسَات يَرْفَع حَالَة الشُّعُور بِالْغَضَب لَدَى الْمَوَاطِن الْبَسِيط، هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ الْغَضَبِ تَرْتَفِع لِحَدّ الْكَرَاهِيَة، ثُمّ تَصِلُ إِلَى حَدِّ الْعداء، وبخَاصَّة أَنْ هَذَا الْمَوَاطِن الْبَسِيط لَمْ يَطْلُبْ سِوَى حُقُوقِهِ الَّتِي أَعْلَنْت عَنْهَا هَذِه الْمُؤَسَّسَة، وَعِنْدَمَا يَتَقَدَّم بِطَلَبِ هَذِهِ الْخِدْمَة يَصْطَدِم بِأَحَد هَؤُلَاء الْمَرْضَى النَّفْسِيَّيْن، وَهَؤُلَاء الْمَرْضَى لَلْأَسَف نَادِرًا أَن تَخْلُو مِنْهُم مُؤَسَّسَةٍ مِنَ الْمُؤَسَّسَاتِ، وللأسف الْأَكْبَرِ أَنْ الْمَوَاطِنَ الْبَسِيطُ الَّذِي تَقَدَّمَ لِطَلَبِ هَذِهِ الْخِدْمَة وَلَاقَى أَصْنَافِ الْعَذَابِ وَالْآلَام لِلْحُصُولِ عَلَيْهَا، قَد يُصِيبُه اليَأس فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ وَلَا يَحْصُلُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ.

هَؤُلَاء مَوْجُودُونَ فِي مُعْظَمِ الْمُؤَسَّسَات الَّتِي يَتَعَامَلُ مَعَهَا الْمَوَاطِن الْبَسِيط بِشَكْل دَائِم مِثْل التَّعْلِيم وَالصِّحَّة والشرطة والمحليات، وَقَدْ تَكُونُ أدوارهم فِي هَذِهِ الْمُؤَسَّسَات ثَانَوِيَّةٌ لَكِن لاَ بُدَّ مِنْ الْمُرُورِ عَلَيْهِم وَالْحُصُولِ عَلَى توقيعاتهم، وَهَذِه هي الْمُعْضِلَة، وَأَنَا هُنَا لَا أُعَوِّل عَلَى الدَّوْلَة وَحْدَهَا فِي وُجُودِهِم بَلْ نَحْنُ شُرَكَاء، لِأَنَّنَا اسْتَسْلَمْنَا لأمراضهم مُنْذُ البِدايَةِ فَيَجِبُ عَلَى الْجَمِيعِ الوُقوفَ أَمامَ مَرَضِهِم وَجَهْلُهُم وَإِبْلاغ مدرائهم عَن تجاوزاتهم وتعقيدهم لِلْأُمُور، كُلُّ هَذِهِ المعوقات تزيد مِن فرْصَة نَجَاح الْحَرْب الدَّائِرَةُ عَلَى مِصْرَ، هَؤُلَاءِ لَا يَعْمَلُونَ لِصَالِح أَي فَصِيل، وَلَا ينتمون لِأَيّ فِرْقَة إِنَّمَا يَحْمِلُون عُقْدًا نَفْسِيَّة مُرْتَبِطَة بطفولاتهم، وَقَدَّرْنَا أَن نَرَاهُم فِي مَوَاقِعَهُم، الْكُلّ يَتَّفِق مَعِي عَلَى أَنَّ وُجُودَهم حَقِيقَة، وَأَظُنُّ أَنَّ الْكَثِيرَ من عَانَى مِن بيروقراطيتهم المتعفنة وتعنتهم فِي الْمَصَالِح الَّتِي يَعْمَلُونَ بِهَا، وَكَمَا قُلْت إِنَّنِي لَا أُطَالِبُ بِمُجْتَمَع مِثالِيٍّ إِنَّمَا أحْذَر مِن وُجُودِهِم، أَوْ عَلَيْنَا أَنْ نهمش دورهم فِي أَمَاكِنَ عَمَلِهِم بِالتَّعَاوُن مَع الشُّرَفَاء مِنْ أَبْنَاءِ الوَطَن، أعْلَمْ أَنَّ هَذَا يَتَطَلَّبُ مَجْهُودًا وَلَكِن أَهَمّ شَيْء عِنْدَ مُوَاجِهَة هَؤُلَاء الْمَرْضَى هُو نبذهم وتهميش دورِهِم وَاحْتِقَار أَعْمَالِهِم وَهَذَا السُّلُوك يَكُون بِشَكْل جَمَاعِيّ وَلَيْس شَكْل فَرْدَي، فَعِنْدَمَا يَكُونُ الصَّوْتُ أُحَادِيّا فَإِنَّهُ لَا يسْمَعُ، لِذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَمِع لمواجهتهم لَكِن لَلْأَسَف إِنَّنِي أُرِي الْكَثِير يُهَادَن هَؤُلَاء، ويلاطفهم ويرجوهم وَيَبْحَثُ عَنْ مَنْ يَتَوَسَّط إِلَيْه لَدَيْهِم هَذِهِ الْأُمُورِ هِيَ الَّتِي تدفعهم لمواصلة أَعْمَالِهِم، فَكَمَا يَقُول إِمَام الدُّعَاة الشَّيْخُ مُحَمَّدُ مُتَوَلِّي الشَّعْرَاوِيّ: (عِنْدَمَا سَكَت أَهْل الْحَقِّ عَنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ تَوَهُّم أَهْل الْبَاطِلِ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ).

أضف إلى هذه العوامل القدرية، الأمراض التي نُقِشَت في العالم في العصر الحديث والتي لم تكن موجودة من قبل فلا شك أنها استهلكت طاقات البشر نفسيا واجتماعيا وماديا، والتي لها أكبر الأثر على الشعوب كلها، كذلك الحروب غير المبررة بين الدول المجاورة جعل مصر والشرق الأوسط على حافة بركان يكاد ينفجر في أي وقت، ولا شك أن كل هذه الأحداث والعوامل القدرية التي كتبت بها مصر والعالم أجمع قد أدت إلى انهيار الجهاز المناعي لدى المواطنين البسطاء، وأقصد جهاز امتصاص الصدمات فأصيب المواطن المصري بصفة خاصة بمرض الهشاشة المتعددة، الهشاشة النفسية والهشاشة الاجتماعية والهشاشة الاقتصادية والهشاشة الوطنية، ولا شك أن كل هذه العوامل إن لم يتم تداركها فإن النتائج لن تكون على ما يرام..

كانت هذه أهم العناصر الداخلية التي اعتبرها أعداء الوطن، وبخاصة إذا علمنا أن مصر في أعين جميع الدول الاستعمارية منذ نشأة الأرض وحتى يومنا هذا بل وإلى قيام الساعة...

((الخاتمة))

بَعْدَ الْعَرْضِ الَّذِي تَقَدَّمَ سَابِقًا نَخْلُص إِلَى نَتِيجَة طَبِيعِيَّة، وَهِيَ أَنَّ الدُّوَلَ الاسْتِعَمَارِيَّة الطامعة فِي مِصْرٍ نَجَحْت فِي تَوْظِيف كُلُّ هَذِهِ الْأَحْدَاث لصالحها فَأَصْبَحَت الْمُهِمَّة سَهْلَة، إن الْمُتَأَمِّل فِي تَارِيخِ مِصْرَ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَالْمَعَاصِر يَجِدُ أَنَّ الْأَحْدَاثَ تَتَكَرَّر بِنَفْس الشَّكْل مَعَ تَغَيُّرِ الْأَشْخَاص فَقَط، وَتَغَيَّر الْفِكْر، فَلَمْ يَعُدْ الاحْتِلاَل احتلالا عَسْكَرِيّا، إنَّمَا أَصْبَح الاحْتِلاَل فِكْرِيّا واقتصاديا، فَلَمْ تَعُدْ الدُّوَل الاسْتِعَمَارِيَّة بِحَاجَةٍ إِلَى اسْتِعْراض الْقُوَى العَسْكَرِيَّة، وَقَد بَائِتٌ فَكَرة الاحْتِلاَل الْعَسْكَرِيّ بِالفَشَل، فَأَصْبَحَت الدُّوَل الاسْتِعَمَارِيَّة تَعْمَلُ عَلَى طُمِس الْهُوِيَّة وَإِلْغَاء مَفْهُوم الوَطَنِيَّة مِن عُقُول الشَّبَاب وَإِلْغَاء فَكَرة الْحُدُودَ بَيْنَ الدُّوَل، وَالْعَمَلُ عَلَى مَحْوِ التَّارِيخ، مستغلة في ذلك كل العوامل التي تم سردها في الأبواب السابقة، ثُمَّ تَأْتِي الْمُرَحَّلة الأخطر، وَهِي الاحْتِلاَل الاقْتِصَادِيّ فَقَامَت هَذِهِ الْقُوَى الاسْتِعَمَارِيَّة بِمُحَاوَلَة تَوْفِير الاحتياجات للدول الْمَعْنِيَّة بِأَسْعَار أَقَلَّ مِنْ سِعْرِ إِنْتَاجِهَا فِي مَوْطِنَهَا، وَشَيْئًا فشيئا تَنْتَهِي هَذِه الصِّنَاعَات وَالزِّرَاعَات مِن الدُّوَل الْمَعْنِيَّة لتعتمد اعْتِمَادًا أَساسِيّا عَلَى الدُّوَل الاسْتِعَمَارِيَّة فِي الاستيراد، وَتُصْبِح هَذِه الشُّعُوب عَاجِزَةً عَنْ الإِنْتاج وَمِنْ هُنَا يَبْدَأ الاحْتِلاَل، فَالْقَاعِدَة تَقُولُ مِنْ لَا يَمْلِكُ قُوتَهُ لَا يَمْلِكُ حُرِّيَّتِه، فَتصبح هَذِه الشُّعُوب الْعَرَبِيَّةِ فِي يَدِ مَنْ يتحكمون فِي أَقْوَاتِهِم، فيملون عَلَيْنَا شُرُوط وَلَا بُدَّ أَنْ نَقْبَلَ، فَنَحْن نَتَحَدَّث عَن الْأَمْن الغذائي.

أَعَقُلَ أَنْ تَكُونَ مِصر أَكْبَر مُسْتَوْرِد للقمح وَلَقَد عَاشَت فَتْرَة لَيْسَت بالقصيرة أَكْبَر مُصَدِّر للقمح فِي الْعَالَمِ، مزرعة القمح للعالم كله خلال الإمبراطورية الرومانية، لَقَد هَجَر الْفَلَّاحِين زِرَاعَة محاصيل الْأَمْن الغذائي أَمَام إغْرَاء الْمَال بزراعة المحاصيل ذَات الْعَائِد الْأَعْلَى، وَرُبَّمَا هَجَر الْفَلَاح أَرْضِه تَمَامًا أَمَام إغْرَاء الْمَشْرُوعَات الَّتِي تُقَامُ عَلَى أَرْضِهِ، إنَّ قَانُونَ تَجْرِيم الْبِنَاءِ عَلَى الْأَرَضِ الزِّرَاعِيَّة بِحَاجَة إلَى أَنْ يُؤْخَذَ بجدية وَحَزْم، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعُقُوبَة تُكَافِئ الْجُرْم، إنَّ الْبِنَاءَ عَلَى الْأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّة مَهْمَا كَانَ الهَدَفُ سَكَن أَو مشروعات لا بُدَّ أَنْ تَغْلُظَ عُقُوبَتُهَا وَلَا بُدَّ أَنْ يُسْنَدَ هَذَا الْأَمْرِ إلَى القُوَّاتُ الْمُسَلَّحَةُ، لَكِنْ ثَمَّةَ أَمْرًا خَطِيرًا مُرْتَبِطًا ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِمَنْع الْبِنَاءِ عَلَى الْأَرَاضِي الزِّرَاعِيَّة وَهُوَ إيجَادُ البَديل والبديل أَكَاد أَجْزِم أَنَّه مُتَوَفِّرٌ بنسبة تَقْتَرِبْ مِنَ الْمِائَةِ بِالْمِائَة، وَهُو الظهير الصحراوي، فَمعظم مُحَافَظَات مِصر تَطُل بِجُزْءٍ مِنْهَا عَلى ظَهِير صَحْراوِي لَكِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يُؤَدِّي إلَى الْإِصْرَار عَلى الْمُخَالَفَة هُوَ الْحَاجَةُ وَعَدَم السَّمَاح بتوافر البَديل.. إننا أمام عدو مجهول الموقع كما قلت، وليس مجهول الهوية، وإن لم تتكاتف جميع العناصر والقوى والفئات داخل المجتمع فالنتائج ستكون وخيمة، والعاقبة سيئة لأننا نعلم علم اليقين أنه هناك إصرار من دول كثيرة على إيقاع مصر تمهيدا لاحتلالها، وما يجري في جميع الدول العربية من إسقاط الحكومات وإقامة قواعد عسكرية بها أو خلق حالة من الضرورة للتواجد العسكري، هو محاولة لاستفزاز مصر واستنفارها وجرها إلى حرب، لإيجاد زريعة للتدخل في شئون مصر، وكل هذا يزيد من ثقل المسئولية الملقاة على عاتق من يتولى قيادة مصر في هذه الفترة.

لأنه عليه أن يجنب البلاد مخاطر شديدة داخلية وخارجية، لذلك يجب علينا الالتفاف حول القيادة المصرية لنعبر بمصرنا الغالية بر الأمان، ونفوت على هذه الدول المتربصة بنا أي فرصة للتدخل في شئون مصرنا الحبيبة.

قدمت هذا العرض وكلي يقين أن مصر في أمن الله وأمانته وأن مصر لن تُقهَر مهما اجتمعت عليها الأمم فمصر ذات رحم ولادة، وقواتها المسلحة ساهرة على أمنها بل إن غالبية أبناء مصر يتمتعون بحس وطني عالٍ ويدركون ويقدرون قيمة هذا الوطن، ولقد رأيت هذا في مواقف عديدة داخل مصر وخارجها، إن أبناء مصر مهما تفرقوا فإن المحن تجمعهم، ولن تستطيع أي قوة مهما بلغت أن تفرق شعب مصر، ولم تكن هذه الخواطر التي كتبتها إلا تذكرة للغافل وتنبيها للعاقل، وهدفي الأسمى والأَجَلُّ هو الأجيال القادمة فهم عماد الوطن، إنني أناشد هذا الجيل أن يتمسك بوطنيته ولا يسمح لأي مضلل أو مغرض أو حاقد أن يعبث بوطنيته وحبه لمصر...

(إنها مصر يا سادة إنها مصر وكفى)..

وأسأل الله أن أكون وفقت فيما أرنو إليه...

الفهرس

((تَقْدِيم))_____ 6
((الْبَابُ الْأَوَّلُ)) _____ 9
(مُثَلَّث الرُّعْب) _____ 9
((الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ)) _____ 11
(دعاة الدِّين)_____ 11
((الْمَبْحَثُ الثَّانِي)) _____ 20
(الْإِعْلَام) _____ 20
((المبحث الثالث)) _____ 29
(الفقر) _____ 29
((الْبَابُ الثَّانِي)) _____ 35
(الثُّنَائِيّ المدمر) _____ 35
((الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ)) _____ 36
(الْمُرْتَزِقَة)_____ 36
((الْمَبْحَثُ الثَّانِي)) _____ 40
(الرُّوَيْبِضَة)_____ 40

((الْبَابُ الثَّالِثُ))_____42
(طُوفان الْأُمَم)_____42
((المبحث الأول))_____43
(الْجَهْل)_____43
((الْمَبْحَثُ الثَّانِي))_____49
((الخاتمة))_____52

امسح ال QR Code

للتواصل مع الكاتب

للتواصل مع دار ديوان العرب للنشر والتوزيع